فلما جنَّ الليل

نصوص أدبية (إيمانية)

فلما جنَّ الليل

وليد سميح العوضي

اســـم الناشـــر : مؤسسة صهيل الأدبية

اســـم الكتـــاب : فلما جنَّ الليل

اســـم المؤلـــف : وليد سميح العوضي

رقـــم الإيـــداع : ٢٠٢١/٧٨٩٥

الترقيـم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٨٥٦٥٣-٥-٥

الإخراج الداخلي : القسم الفني لمؤسسة صهيل الأدبية

﴿ بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴾

"من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل..."

محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

نور العقل يضيء في ليل الهوى فتلوح جادة الصواب

فيتلمح البصير في ذلك عواقب الأمور.

(**ابن القيم**)

أيها الراقدون حولي أعينو *** ني على الليل حسبة وائتجار

حدثوني عن النهار حديثا *** أو صفوه فقد نسيت النهارا

(**حبيب بن عيسى الكاتب**)

إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما.

(**عمر بن عبد العزيز**)

الإهداء

إلى والدي (رحمه الله)

الذي رأيته يوما داخلا البيت يحمل كتابا كثير المجلدات

فتعلمت حب الكتب وحب القراءة.

مقدمة

فلما جنَّ الليل...

جلس ملقيا أحمال أيامه وحصاد شهوره وأعوامه وعمره ..

فلما جنَّ الليل...

تذكر أن هناك حياةً غير تلك الحياة التي نسير فيها نيامًا، حياة حقيقية يبحث عنها الصادقون في كل مكان.. يفتش عنها الأنقياء أو من يودون أن يكونوا أنقياء في ذلك الزمن الملوث...

فلما جنَّ الليل...

رأى أشياء كان غائبا عن رؤيتها فلما انكشفت أدرك في أي غفلة كان وعن أي حال كان مأخوذا مصروفا...

سمع أشياء كان غافلا عن سماعها فلما ظهرت له أحس باليقظة الحقيقية وبالحياة الحقيقية..

صوت الليل في مخلوقاته كأنه التسبيح.. تلاوة عابد قام يعد نفسه للرحلة الأخيرة.. همس داع يناجي قريبا مجيبا...

فلما جنَّ الليل...

أدرك أن الأمر ليس كما يظن الكثيرون بل أن اللحظة التي قد تغير حياتك ماثلة أمامك فقط تنتظرك حتى تقدم أنت لتتناولها وتقطفها فتجدها كأحلى ثمرة قد تذوقها في يوم من الأيام...

لكنك إذا تأخرت عن قطف الثمرة وبعدت وشردت عن الطريق فقد تذبل وتجف أو قد تخبو وتموت..

وينجلي الليل دونها...

وليد العوضي ١٤٤٢

هل رأيت الكعبة ؟

فارقتُ مكة والأقدارُ تُقحِمُني
ولي فؤادٌ بها ثاوٍ مَدى الزَّمنِ

فارقتُها لا رضىً منِّي وقد شهدَتْ
بذلك أملاك ذاك الحجر والركن

(ابن معصوم المدني)

جاء جارى من العمرة فذهبت لزيارته.

أخذتنى الخواطر لما علمت بمقدمه.. أحب أن أرى أثر الأعمال على الوجوه.. أتتبع هذا الأثر لأستكشف مكنونات القلوب.. هل غيرته العبادة؟

هل استفاد قلبه شيئاً جديداً من خشية أو تعظيم أو إنابة..؟

هل نرى فى وجهه نور الكعبة، وتعب الطواف، وأثر السجود، وإشقاء البدن..؟

هل نحس بفرحة التعب التى يحسها عباد الحج والعمرة خاصة..؟

وتذكرت حالى لما ذهبت للعمرة..

كان يشغلنى فى البداية أين سننزل أولاً أفى مكة أم فى المدينة؟

هل سأجد المكان كما تخيلت؟

بم سأشعر حين ألقى الكعبة وأراها لأول مرة؟

انطلقنا نلبى..

وأنت فى أول الأمر لا تستطيع أن ترفع صوتك بالتلبية مع أن هذه هى السنّة، لكن تكون هناك رهبة فى البداية، واستغراب لهذه العبادة

الجديدة بخلاف الصلاة مثلاً التى يطرقها العبد كل يوم كثيراً فرضاً ونفلاً.

وشيئاً فشيئاً يعلو صوتك، وتجد أنك أحياناً لا تلتفت للناس وهل ينظرون أو يسمعون وتشغلك التلبية، وقد يخفت صوتك مرة أخرى..

كل ذلك وأنت تضع حقائبك ويدفعك إنسان، ويمر من أمامك آخر، أو تنتقل من وسيلة مواصلات لأخرى، ويكلمك رفقاؤك أو تكلمهم، أو تغفو قليلاً أو تسهو..

ثم تعود لتتذكر أن هذه عبادة جديدة فليكن لك منها نصيب، واغتنم فرصتك قبل أن تنقطع التلبية برؤية البيت.

وفى فترة الغفوة أو السهو تتمتم بالتلبية، وتتداخل ألفاظها، وقد تشرد فى تدبر معانيها..

لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك..

إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك..

ما كان ظن إبراهيم عليه السلام حين أذن فى الناس بهذه العبادة؟

وهل أجاب البشر حق الإجابة؟

لبيك..

لبيك اللهم لبيك:

أى: (أجيبك يا الله إجابة بعد إجابة). هكذا كانوا ينصون على المعنى فى الكتب..

ولكن..

هل أجاب هذا القلب مع هذه الجوارح؟

اللسان تحرك والشفتان تنطقان، فهل نطق القلب وأجاب..

وتذكرت فى لمحة عابرة قولاً لبعض الصحابة كان يزيده فى تلبيته أظنه أنس رضى الله عنه: لبيك حقاً، تعبداً ورِقًّا.

وهذا مثل قول زيد بن عمرو بن نفيل: لبيك حقاً حقاً تعبداً ورقاً.

ولكن لماذا زاد أنس على ما كان يلبي به النبي صلى الله عليه وسلم وهم كانوا أحرص الناس على الاتباع والاقتفاء..؟

ما أظن ذلك خرج منه إلا رغماً عنه، فضلاً عن أن النبى لم ينه عن ذلك..

كانت هذه القلوب تجيب حق الإجابة.. وأفعالهم، وأقوالهم، وسمْتهم، وهديهم كان نابعاً من إجابة قلوبهم.

لذا فالفعل منهم ليس كغيرهم. وهم أصحاب رسول الله واختصوا بما لم تختص به جماعة أخرى من الناس، وكانوا أيضاً أبعد الناس عن البدعة.

وما كان ذلك من أنس رضى الله عنه إلا استشعاراً لعذوبة العبودية، وحلاوة للرق طالما أنه مصروف لله عز وجل، ولا يكون الرق محموداً إلا فى هذا الموطن.

وقد يصح أن يذل الأخ لأخيه، والصديق لصديقه، والحبيب لحبيبه، والضيف لضيفه، كما قال حاتم الطائي:

وإنى لعبد الضيف مادام ثاوياً ومافىَّ إلا تلك من شيمة العبد

فهذا مهما علا وحسُن ففى منحىً بعيد وواد آخر، بل ما أبعده عن عبودية الله عز وجل وأين الثرى من الثريا.

فهذه الزيادة من أنس رضي الله عنه معبرة أشد التعبير عن سفر القلب لتلبية داعى الرب سبحانه.

.....

لما حاذينا الميقات تجردنا للإحرام كلٌ كيفما استطاع، وارتبك الناس شيئاً فى الطائرة ولكن فى النهاية استقر الأمر وبقيت فكرة ملحّة تطرقنى:

التجرد...!

إنك تتجرد من كل شئ، ولا تستر جسدك إلا بما يشبه الخِرَق، يقول العلماء: إن هذا لفتٌ للكفن، حيث يتذكر الإنسان موته وكفنه.

وأقول: ولولا الأشباه والأمثال ما انتبه الساهون وما أفاق الغافلون.

مر الليل سريعاً، وقرب الفجر، وخشينا أن نتأخر عن إتيان البيت وتأدية المنسك، لأن التعب كان قد بلغ منا مبلغه.

وبعد أن صلينا، وبعد أن طلعت الشمس علينا ونحن نسير، وارتفعت لتظهر الأشياء؛ رأينا الكعبة....

.....

إذا أردت أن تلخص الكعبة فى كلمتين فماذا تقول؟

البهاء والروعة..

والروعة أصل معناها ما يروع الإنسان ويفزعه ثم انصرف المعنى في بعض أفراده لما يستحسن، ولا يجد له المتكلم ما يعبر به عنه.

وأظن أنه قد بقى فى حق الكعبة شئ من المعنى الأول يتسرب لقلب الرائى.

تبهرك ضخامتها لأنك لم ترها إلا فى الصور أو المرئيات..

ولم أتمالك إلا أن أقول لرفقائى:

هل تصدقون أنكم ترون الكعبة..؟

تقشعر الجلود وتوجل القلوب وتكاد تفيض العيون بما فيها، أما أصحاب القلوب الرقيقة فيبكون إذا رأوا الكعبة بكاءً شديداً..

وتنحبس الكلمات فى الحلوق، وتجد نفسك لا شعورياً تطوف حول هذا البناء العتيق الجليل.

وخطر لى خاطر..

أى سر عجيب فى هذا البناء..؟

وما الذي جعله بهذه المثابة..؟

ثم قلت لنفسى: إن الله عز وجل أراد أن تهوى القلوب والأبدان لهذا البيت ويسر لهم ذلك وشوقهم إليه وأمنهم فيه، وجعل من أتاه مرة، وذاق حلاوة هذه الزيارة كمن شد بينه وبينه بحبل لا ينقطع.. قد يرتخى أو يرق أو يغلظ لكنه لا ينقطع مادام القلب فيه من جذوة الإيمان مافيه وتذكرت قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾. فمن آب وأقبل يسر للفهم والحفظ، ومن أبى وأدبر يسر للغفلة والنسيان ونزعت منه لذة القرب.

وكذلك الكعبة..

بقدر إقبالك وإيابك ومحبتك وإخلاصك واستجابة قلبك وخضوعه وسجوده؛ تجد الشوق لها والرغبة فى زيارتها والطواف بها.

كان سيل الخواطر والأفكار لا ينقطع مع كل خطوة نخطوها فى أداء العمرة، كنا كمن يعيش حلماً أبيض صافٍ محبباً لا يريد أن يفيق منه..

تسير وتطوف وتسعى وكأنك لا تقوم بذلك حقيقة، والجو لطيف وقد غاب التعب وكأننا – نحن الذين لم ننم – قضينا الليل كله فى نوم لذيذ.

فكرت ...

أخيراً لامَسْتَ هذه العبادة التى طالما قرأت عنها، ولكن روحها بعيدة عنك..

فارق كبير بين أن تقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وبين أن تدور حول الكعبة سبعة أشواطٍ طوال وأنت منبهر خاشع خاضع ذاكر لله عز وجل.

فارق كبير بين أن تقرأ فى الكتب:

(يسن الاضطباع فى طواف القدوم وطواف العمرة)

وبين أن تحسر الرداء عن كتفك الأيمن، وتقاوم ما يمكن أن يداخلك من حياء أمام هذه الحشود، ثم سرعان ما تنسى ذلك لأن الكل مشغول بما هو أعظم.. وتطرق قلبك لذة الانصياع والانقهار لله

سبحانه لأنك فعلت هذه (العبودية) الصغيرة في ظنك، وهكذا فى كل عبادة فى هذه الأماكن المهيبة المقدسة.

كنت أقول..

كان يشغلنى أين سننزل أولاً.. وحمدت الله أن نزلنا فى مكة أولاً..

وسرعان ما جال بذهنى الخلاف الشهير: مكة أفضل أم المدينة؟

وقد ظللت زمناً أظن أن الأمر يشبه ما حُكى عن بعض الأذكياء أنه سئل عن طعامين نفيسين أيهما أفضل، فقال بذكاء: لا أقضى على غائب، فأُتى بهما فجعل يأكل من هذا قطعة ومن هذا قطعة حتى كاد يذهب بهما فكرروا عليه السؤال فقال: كلما أردت أن أقضى لأحدهما أتى الآخر بحجته..!

ولقد شعرت بشئ من ذلك لما ذهبنا للمدينة، ورأينا ما رأينا من الضخامة والفخامة (وللمدينة حديث آخر)، ولكني لما تذكرت مكة وخيرت نفسى أين تحب أن تعيش لم تتردد فى أن تختار مكة..

هل كان ذلك لأن الكعبة هى أول شئ طرقنا فى رحلتنا، والإنسان مجبول على محبة منازله الأولى والحنين إليها..؟

هل كان ذلك لأنها أحب البلاد إلى الله، وإلى النبى صلى الله عليه وسلم..؟

نعم.. فلا شئ يعدل كونها أحب البلاد إلى الله، ولا ينافى ذلك حب المنزل الأول.

ولكنك كنت أثناء إقامتك فى مكة تفكر فى شئ آخر..

كنت تملأ عينيك من رؤية الكعبة كالمشتاق الذى لم ير محبوبه سنين طوال فلما رآه واستيقن صورته واطمأن إلى أن جماله مازال هو هو لم يمسه غبار الأيام وتراب السنين أخذ يعب النظرة تلو النظرة فى نهم لا يشبع.

أقول كانت رؤية الكعبة شيئا آخر..

كنت تريد أن تتخيلها على صورتها الأولى.. أن تخلع عن ذهنك – لبعض الوقت – هذه الصورة المستقرة المطبوعة لها بهذه الكسوة الثمينة العطرة.

كنت تريد أن تنفذ إليها..

أن تراها حق الرؤية..

وتغمض عينيك وتحاول أن تتخيل هذه اللحظات الإيمانية الرفيعة العالية..

لحظات بناء إبراهيم لها وإسماعيل عليهما السلام..

تلك اللحظات الكونية الصادقة التى تهتز لها الأرض، وترتجف لها قلوب البشر، بل وترتجف لها الجبال والشجر والحجر والدواب..

أية مشاعر وأحاسيس أحسها إبراهيم عليه السلام وهو يرفع القواعد ويؤسس البيت الحرام

من المؤكد أن قلبه كان يخفق نشوة وحباً وتسليماً وامتناناً وإجلالاً لله عز وجل..

ولا يبعد أن يكون قد بكى شوقاً ولهفة وابنه يناوله ما يبنى به لأنه يريد أن يتم البناء وينصدع لأمر الله تبارك وتعالى.

وبالتأكيد كان يستعذب المشقة والتعب من أجل إقامة أعظم وأجل بناء فى هذا الكون الفسيح الرحب.

وتفكر ثانية – ولا انقطاع لذلك – ما الذى وضعه الله فى هذا البناء ليكون له مثل هذه الجاذبية والتأثير..؟

ما الذى أوجده الله فى هذه البقعة ليجعل أهل الأرض يدورون حولها ليلاً ونهاراً دون كلل أو ملل.

وتذكرت الطواف..

فى أى وقت تقصد فيه الكعبة تجد الناس متحلقين حولها يطوفون ويدعون ويبتهلون..

لقد تعمدت أن آتى فى كل الأوقات الممكنة.. قبل الفجر وبعده ،فى وقت الظهيرة القائظ وبالليل.. فى أى وقت تطرق فيه البيت فإنك واجد لا محالة جماعات من الناس طائفة به أو ملتزمة أو مقبلة..

وتذكرت الحجر الأسود الذى ما استطعت تقبيله حتى الآن لأجل الزحام، ولأجل مخافة الوزر، لأن كثيراً من الناس يتزاحمون ويتضاربون – وهم فى البيت الحرام!- لأجل تقبيل الحجر..

فيا عجباً كيف يرتكبون المحرم لفعل مستحب..

ولكن..

ما هذا..؟

انظر.. ألا تعجب لسواده..؟

بلى.. لقد كان هذا الحجر الأسود أبيض ناصعاً كالثلج كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تزل الحجر الأسود من الجنة أشد بياضا من الثلج، فسودته خطايا بني آدم".

ولم أكن لأصدق أن هذا الحديث صحيح لولا أن وجدت الشيخ الألبانى رحمه الله قد صححه، بل وصحح حديثاً آخر وإن شئت قل هما حديث واحد أن رسول الله قال: "لولا ما مسه من أنجاس الجاهلية، ما مسه ذو عاهة إلا شفي، وما على الأرض شيء من الجنة غيره".

فيالكثرة خطايانا ويالصبر ربنا عز وجل وحلمه علينا.

ماذا كنت أقول لك فى أول المقال..؟

آه..

كنت أخبرك عن جارى الذى جاء من العمرة فذهبت لزيارته وأنا متلهف لألمح التغير الذى طرأ عليه بعد هذه الرحلة التعبدية..

وأصدقك القول: إننى لم أجد ما أبحث عنه..

وحينما تذكرت مجيئنا..

وحينما تذكرت أننا أيضاً قد زارنا الناس..

وربما بحث أحدهم عما كنت أبحث عنه، وظل يفتش فى وجوهنا عن شئ..

داخلنى الحياء، والخوف، والوجل ..

وتساءلت: هل وجد هذا الإنسان ما كان يبحث عنه..

وهل رأى الكعبة

فى وجوهنا..؟

هل أنت كالأعمى؟

والقلب يدرك ما لا يدرك البصر.....

(بهاء الدين زهير)

لا تعجب إن علمت أن أكثر الخلق يكون أعمى حتى إن رزق العيون الباصرة..

لا تعجب، وإن عجبت فقس الأمر على من تعرف من الناس القريبين أو البعيدين.. وإن رمت زوال العجب فقس الأمر على نفسك..!

يخبرنا النبى صلى الله عليه وسلم بحديث عجب من أحسن القصص التى لا يستطيع قلم البليغ الأديب أن يصطنعه، ولا يصل إليه الشاعر الحاذق الماهر، كيف لا وهو أصدق القصص، وقد قيل قديماً: أحسن الشعر أصدقه، (وقيل أيضاً: أحسن الشعر أكذبه) وقال حسان:

وإن أشعرَ بيتٍ أنت قائله بيتٌ يقال إذا أنشدته صدقا

وأيّاً كان الفصل فى ذلك فإنى أظن أن كلام النبى لا تسرى عليه قواعد كلام البشر فى جوانب منه – وإن شئت فقل الكلام النبوى فى مبناه ومعناه ليس كالكلام البشرى – وليس هذا مجال الخوض فى ذلك ولعله يكون حديثاً بيننا.

يخبرنا النبى صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه قال:

"حَدَّثَنَا شَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِى طَلْحَةَ حَدَّثَنِى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِى عَمْرَةَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ «إِنَّ ثَلاَثَةً فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ أَىُّ شَىْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّى الَّذِى قَدْ قَذِرَنِى النَّاسُ. قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِىَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا قَالَ فَأَىُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الإِبِلُ أَوْ قَالَ الْبَقَرُ شَكَّ إِسْحَاقُ - إِلاَّ أَنَّ الأَبْرَصَ أَوِ الأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا الإِبِلُ وَقَالَ الآخَرُ الْبَقَرُ- قَالَ فَأُعْطِىَ نَاقَةً عُشَرَاءَ فَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا - قَالَ - فَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ أَىُّ شَىْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّى هَذَا الَّذِى قَذِرَنِى النَّاسُ.

قَالَ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِىَ شَعَرًا حَسَنًا - قَالَ - فَأَىُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْبَقَرُ. فَأُعْطِىَ بَقَرَةً حَامِلاً فَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا -

قَالَ- فَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ أَىُّ شَىْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَىَّ بَصَرِى فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ - قَالَ - فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ فَأَىُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْغَنَمُ.

فَأُعْطِىَ شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا - قَالَ - فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ. قَالَ ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِى صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِىَ الْحِبَالُ فِى سَفَرِى فَلاَ بَلاَغَ لِىَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِى أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِى سَفَرِى. فَقَالَ الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ كَأَنِّى أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ فَقَالَ إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ وَأَتَى الأَقْرَعَ فِى صُورَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ وَأَتَى الأَعْمَى فِى صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِىَ الْحِبَالُ فِى سَفَرِى فَلاَ بَلاَغَ لِىَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِى رَدَّ عَلَيْكَ

بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِى سَفَرِى فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَىَّ بَصَرِى فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ لاَ أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رُضِىَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ."

[مسلم ٧٦٢٠] وكذلك رواه البخارى، باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع فى بنى إسرائيل [٣٤٦٤] .

إن أول ما يلفت الانتباه فى الحديث قول النبى: (فأراد الله أن يبتليهم) إذ يدل على مضى الابتلاء فى الناس ودوام ذلك، حيث قضى الله أن من سنته فى العباد أن يبتليهم بل إنه "الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ" [الإنسان: ٢]. "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً" [فصلت: ٧] فإذا انقطع البلاء عن حياة البشر فكيف يتميز الحق من الباطل، وكيف يجزى الصالح، ويجازى الفاسد..؟

والبلاء كما قال القائل نعمة وبيان ذلك أن أعمال الخلق لا تبلغ الكمال مهما علت وصحت، ولا يستأهل البشر– وإن تفانوا فى العبادة – رفعة الدرجات فى الجنان.

ولكن من رحمة الله سبحانه بهم أن جعل هذه السّنّة، سنة الابتلاء، ليزيد فى درجاتهم، ويعلى منازلهم التى تقصر عنها أعمالهم.

وإذا علم العبد عظم الأجر، وجاز الاختبار وكان من الفائزين؛ أحس بهذه النعمة العظيمة، ولذا فأفضل البشر أكثرهم بلاءاً، وصح فى ذلك قول الصادق الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه:

"أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة".

وبرغم ذلك الأجر وهذه البساتين من النعم بعد القليل من الصبر، فكيف يصبر ،وكيف يطيق البلاء من لا يرضى بشئ من الكدر فى

هذه الدنيا ولا يريد شائبة فيها تنغص عليه حياته، وما ذلك إلا لجهله بحقيقة الدنيا .

انظر لقول الأبرص: (لون حسن وجلد حسن)..

بل تدبر أكثر من ذلك فى طلب الأقرع: (شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس) فإن القرع مهما كان سوءه فى الجسد فقد يستطيع الإنسان أن يخفيه ويستر جسده ورأسه وكذلك البرص قريب من ذلك. ولكن الإنسان فى هذه الدنيا يبغى كمال كل شئ فإذا أحس نقصاً ملا الدنيا صراخاً ونواحاً وندباً والدنيا كما جاء فى حكيم قول أبى الحسن التهامى:

طُبعتْ على كدرٍ وأنتَ تريدها صفواً من الأقذار والأكدارِ

ومُكلِّفُ الأيام ضدَّ طباعِها متطلبٌ فى الماءِ جذوةَ نارِ

وأنا أظن أن بلاء الأعمى كان أشد لأن البرص والقرع قد ينساه العبد فى يومه وليلته ولا يذكره إلا إذا نظر فى المرآة أو عيره جاهل.

أما الأعمى فكيف ينسى عماه وهو فى كل لحظة من لحظات حياته يذكر أنه عاجز عن إبصار ما يبصره الناس، أو رؤية ما يرونه إذ يتحدثون ويمثلون ويذكرون ما رأوه وشاهدوه فى مواقفهم وأسفارهم ومعاملاتهم.

قد حدثتك فى البداية عن العجب من أناس يكونون على عمىً وهم يبصرون.

وأحدثك الآن بعجب آخر حيث تحقق لهؤلاء مالم يتحقق لغيرهم فشاهدوا المعجزة عياناً حين مسح الملك أجسادهم فأذهب الله مابهم من قذر وبلاء وهذا الإذهاب فى ذاته نعمة عظيمة ثم أعطاهم بدلها الحسن والجمال فهى نعمة فوق النعمة.

أقول شاهدوا إحداث المعجزات والنعم بعيون رؤسهم وفى هذا قمة الشهادة التى طلبها إبراهيم عليه السلام من قبل إذ قال لربه: "رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ... "الآية. فأراد أن يصل

لعين اليقين فيرى ويشاهد بعينه وما زاده ذلك إلا إيماناً ويقيناً أما القلوب الجاحدة فأنى لها أن تجد ذلك.

ثم لتعجب مرة أخرى إذ أعطوا المال، بل أفضل المال (ناقة عشراء، وبقرة حاملاً، وشاة والداً) فوق ما طلبوا دون أن يسألوا هم ذلك بل سألهم الملك عن أحب المال فأتاح لهم نعمة أخرى وهى اختيار ما يشتهون.

ولنتدبر الآن هذه اللفتة الربانية الباهرة العظمة حيث اقتضت حكمة الله تعالى أن يرسل إليهم من هو على مثل هيئتهم الأولى من البرص والقرع والعمى فلم كان الأمر كذلك؟ إن فى إجابة هذا السؤال نكتة القول وزبدة الكلام.

وإذا البصائرُ عن طرائق رشدها *** عميتْ فماذا تنفعُ الأبصارُ

لقد كان ورود الأمر بهذه الصورة المبهرة اللافتة منتهى الحكمة من الله سبحانه، وإقامة للحجة عليهم حيث لم يترك لهم عذراً يعتذرون به، وكذلك كان فيه منتهى الرحمة والرأفة؛ لأن الإنسان إذا رأى من هو مثله كان ذلك أدعى لتذكره ورجوعه ويقظته لأنه يعلم فى قرارة

نفسه أنه كان مثل هذا الإنسان سواءً بسواء، وما أقامه واستنقذه، وأعطاه، وحباه، وأغدق عليه إلا الله.

ولتزدد عجباً من قول الاثنين المتشابه المتماثل: (الحقوق كثيرة) وهكذا الأرواح جنود مجندة، والطيور على أشكالها تقع، وكما يتوافق أهل الحق وتتوافى عقولهم على أقوال متشابهة بل متماثلة أحياناً، يتوافى أهل الباطل وأهل المعصية فى أقوالهم كذلك. نسأل الله العافية.

إن كل من سمع هذا القول علم كذب صاحبه، وأن الحقوق ليست كثيرة. وحتى إن كانت كثيرة فلديه المال الكثير الذى يتجاوز هذه الحقوق ويفيض.

وأشد من ذلك الكذب ماجاء بعد ذلك لما قال له الملك: (أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ (أقرع) يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ) فقال قولة عظيمة وافترى فرية مهلكة تدل على أن الكذب والجحود يجرى من ابن آدم مجرى الدم (إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ)، ولعمرى كيف

يفترى الإنسان مثل هذه الفرى جهاراً غير مستحٍ وكأنه بالفعل قد صدق ما افتراه وآمن بما زعمه.

فكم من الاختبارات والابتلاءات التى أرادها الله بنا.. وكم رسبنا فيها بأخس الدرجات.. وكم من المرات التى ربما سخط الله علينا فيها.. وكم عدنا ورفعنا شعار التوبة.. وكم خرقناه ونقضناه والله يملى وما من معتبر، والله المستعان.

وقد كان حقيقا بقلب هذا العبد المعرض الجاحد أن ينصدع بعد قول السائل المسكين (الملك) ودعائه عليه: (إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ) ولكنه لم يفعل، وهكذا القلوب إذا استحكم فيها الهوى تكون مغشاة مغطاة لا ترى ما يراه كل عاقل صحيح النظر، بل تعتو وتتكبر بما لافضل لها فيه طرفة عين.

بقى أن نقول فى حق هذين أنه لا يلزم من هذا السخط العذب المقيم أو الطبع على القلب فقد تحدث عقوبة، وربما يغفر الله بعد ذلك.

والنفس تتساءل الآن لماذا كان الأعمى هو الذى رضى عنه وسخط على صاحبيه؟

يقول فى ذلك ابن حجر فى الفتح [٦-٥٨١]:

"قال الكرمانى ما محصله: كان مزاج الأعمى أصح من مزاج رفيقيه لأن البرص مرض يحصل من فساد المزاج وخلل الطبيعة وكذلك القرع، بخلاف العمى فإنه لا يستلزم ذلك بل قد يكون من أمر خارج فلهذا حسنت طباع الأعمى وساءت طباع الآخرين. "وكذلك فإنه كان صاحب غنم، والسكينة فى أهل الغنم كما قال النبى صلى الله عليه وسلم، وقد قلنا من قبل إن الأعمى كان أشد بلاءاً، ولعله لذلك كان أفضل الثلاثة.

وأيّاً كان الأمر فليس العمى عمى العيون..

فقد يتمنى المرء من كل قلبه أن يكون.. مثل هذا الأعمى.

هل أغلقت الباب

الأعداء يطرقون الأبواب بشدة، لكنهم
لا يستطيعون الدخول علينا إلا إذا فتحنا لهم من الداخل

عبد الكريم بكار

عدو بعيد أفضل من عدو على الأبواب.

(إميل سيوران) فيلسوف روماني

كانوا يحكون في الأساطير الأوروبية القديمة أن الوحش أو الملعون لا يدخل بيتك إلا إذا دعوته للدخول وفتحت له الباب، ولذا كان يتمثل في صورة غير صورته أو يقلد صوتاً غير صوته فيتحايل ليدخل البيت، فإذا دخل بإرادتك أنت وبفعلك أنت لم يستطع أحد أن يمنع الخراب واللعنة والظلام الذي سيعم البيت.

ولطالما ساءلت نفسي إذا كان هذا الوحش بهذه القوة فكيف يعجز عن فتح باب بريء قليل الحجم..؟

وظللت فترة وقد خمد هذا التساؤل كغيره في ذاكرتي البعيدة وغبت أوقاتاً عن قراءة الآداب والأساطير، ومرت علي أحاديث تمس الموضوع لكني لم أنتبه وتستيقظ تلك الجذوة الخامدة في ركن العقل البعيد إلا بعد أن تذكرت مثل هذه الأساطير التي تنص – باتفاق عجيب – على أنه يجب أن تدخل أنت الوحش بإرادتك وتفتح له الباب.

وتحدثنا السنة النبوية كعادتها بأحاديث تبدو في ظاهرها ذات معان مباشرة واضحة فإذا تدبرتها وجدت تحتها طبقات من المعاني لم تنتبه لها..

ثم إنك تمر بك المواقف والأحداث ويطرق ذهنك الحديث مرة أخرى لمشابهته لحدث ما أو طارق ما فيدهشك احتواؤه على طبقة أخرى وربما طبقات من المعاني التي كانت غائبة عنك والتي يدهشك نظرتها الحكيمة العميقة للأشياء فتقطع بأنها خرجت من فم صادق أمين تلقاها من لدن حكيم خبير.

انظر لحديث جابر رضي الله عنه عند البخاري ومسلم وغيرهما قال:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم:

«إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ – أَوْ أَمْسَيْتُمْ – فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَخُلُّوهُمْ، فَأَغْلِقُوا الأَبْوَابَ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا، وَأَوْكُوا قِرَبَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَخَمِّرُوا آنِيَتَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ أَنْ تَعْرُضُوا عَلَيْهَا شَيْئًا، وَأَطْفِئُوا مَصَابِيحَكُمْ».

إن كل عبارة من هذا الحديث تستأهل شرحاً وبسطاً على عدة مستويات، وسبحان من آتى النبي جوامع الكلم ففاق كلامه كل كلام البلغاء والخطباء فصاحة وقصداً وجزالة ومعنىً وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب.

إن فكرة هذا الغلق هي استجابتك أنت..

وكأن هذه الوحوش أو الشياطين إنما هي كيانات غير مادية، وبقليل من العمل ينزاح عن كاهلك عبؤها وينطفئ كيدها فهي إلى الغاية من الوهاء والضعف. هذه الشياطين التي إذا ذكر اسمها اقشعرت أبدان البشر وقال البعض (بسم الله الرحمن الرحيم) وخفض صوته.. الشياطين التي صورها المصورون وتخيلوها بأبشع الأشكال والألوان ،وخلعوا عليها القدرات الخارقة.. مخلوقات بهذه القوة لا تستطيع فتح الباب المغلق الذي أغلقته أنت كما أمرك ربك، فيصير الباب بهذا الامتثال كأوتاد الجبال.

وماذا يغني العود وهو معروض على فوهة الإناء..؟

إن هذا ليس وكاءً وإنما هو ما يمكن أن نسميه صورةً مجازيةً للوكاء أو إن شئت فسمه دليل الامتثال. وهو يحمل فيه أيضاً معنى التخفيف والتيسير فأنت استجبت وأطعت وأديت ما عليك. وما بقي فالله يكفيك إياه.

ويهيج ذلك عندي الحديث الشهير الذي رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:

"لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) قَالَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا أَىْ رَسُولَ اللَّهِ كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ». قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِى إِثْرِهَا (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) قَالَ نَعَمْ (رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) قَالَ نَعَمْ (رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ) قَالَ نَعَمْ (وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) قَالَ نَعَمْ.

وهذا الحديث ينبيك عن مدى خضوع الصحابة للشرع وأوامره وتعظيمهم له إذ جاءوا وبركوا على الركب وهي هيئة المقر الذليل، وقالوا عن الأعمال الماضية التي أمروا بها أنها مما يطيقون فأين هؤلاء ممن لا يطيق أن يركع ركعة أو يعطش لله ساعة.

ومع وضوح الأمر وأن هذا مما لا يطيقه عبد لأنه من عمل القلب الذي لا يملك العبد خطراته ابتداءً فما عَذَرهمْ النبي ولا تهاون معهم، بل وحذرهم من مشابهة قول من سبقهم من أهل الكتاب الذين قالوا سمعنا وعصينا، وهذا من أوضح الأدلة على وجوب الإذعان لأمر الله حتى ولو ظهر أن هذا في غير الاستطاعة فأين هذا ممن ينازع في الأوامر المخففة بحجة مخالفتها لعقله أو قياسه أو حسه أو إن شئت قل مخالفتها لهواه.

وانظر لقوله: ذلت بها ألسنتهم، ولم يقل قلوبهم لأن القلوب كانت وجلة خائفة متوجعة من هذا التكليف الثقيل كيف ستتعامل معه أو كيف تعالجه، بل بكى البعض خوفاً من ذلك، وما نزل التخفيف إلا بعد أن ذلت ألسنتهم وقالوا كما أمروا وصدعوا..

وهذا مشابه تماماً للصورة المجازية للإغلاق والإيكاء. فأثيبوا بأجر عظيم بعد التخفيف بعفو الله ومغفرته ورحمته تبارك وتعالى.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً:

«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِى مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»

هذا حال من اختار غلق الباب، واتخذ القرار السليم، القرار الذي اتضح لنا أنه ليس من الصعوبة بحيث يضحّي معه العبد بالمغفرة والرحمة، وما الأمر بوضع العود عند عدم الوكاء إلا صورة لبيان أن الفارق سهل عبوره وأن القرار لا يستلزم جهداً خارقاً، إنما هو بمقدار اتخاذ القرار، بمقدار عدة سنتيمترات بقين لغلق الباب، لكنها مسافة خطيرة قد تحدث فيها حوادث ووقائع لا يعلم مداها إلا الله.

لأن من الناس من يناسبه ألا يغلق الباب، بل يفضل أن يدعه مواراباً.. نصف مغلق، نصف مفتوح ليسمح بدخول نسبة معينة من الفتن يظل بها محافظاً على النظام العام لحياته الذي لا يفضل أن يخدشه بما فيه من معاص صغيرة، وأفعال مخالفة لكنها – في نظره – تمر بلا عقاب أو أثر مع محبته للدين والعبادة في الجملة، وربما كان هذا حال كثير من المسلمين (الطيبين) وهم وإن كان لهم

نصيب من الخير لا يُنكر وربما كان نصيباً كبيراً إلا أنهم غفلوا عن قاعدة غلق الباب.

إن هؤلاء الذين يرون أن الإنسان قد يعيش أو يتعايش مع مثل هذا القدر من الفتن، ويركب بعضهم مركب التيسير وعدم المشقة وأن الدين يسر وأن النبي صلى الله عليه وسلم ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما؛ هؤلاء لا يتعاملون بمثل هذه الكيفية مع أمور أخرى بل يتفق الناس جميعاً فيما بينهم أن على العاقل أن يحزم أمره، ويتخذ قراراً إن مصيباً أو مخطئاً ولكن الخطأ الذي قد يتأتى من القرار من وجهة نظرهم أهون من هذا التردد الباهت، وهذا الانتظار الممسوخ فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

ثم نقول إن الغلق أولى وأولى من المواربة، والبحث عن الصواب هو الأفضل ديناً ودنيا وما مقولة الناس التي يتناقلونها ويضربونها مثلاً (الباب المغلق يرد القضاء المتعجل) على ما فيها من مؤاخذات؛ إلا أثر لهذه الفكرة وهذه الفطرة الراسخة في نفوس البشر

جميعاً مؤمنهم وكافرهم كما أشرنا في أول المقال ،وكلها تصب في معنى واحد:

أغلق الباب واسترح فقد أديت ما عليك...

ولتزأر الرياح في الخارج بعد ذلك ما شاء الله لها أن تزأر.

ومثل هذا القول قد يواجه به من يريدون ويكرسون للوسطية ويقولون نريد الإسلام السمح الوسطي أو نريد الوسطية في فهم الإسلام..!

إن الدين هو الوسطية..

الدخول في السِّلم كافَّةً هو الوسطية..

الإيمان بكل الكتاب لا ببعضه هو الوسطية..

وما أمرنا به نفعله ما استطعنا وما نهينا عنه نجتنبه هذه هي الوسطية..

وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً..

لقد اختص الله البشر بالعقل ووضع في أيديهم الأمانة الكبرى، ووكل إليهم الاختيار فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها..

وها هو المقبض بين يديك يا أيها البشري الذي رفعت شعار الإسلام على قلعة حياتك، وبين يديك أيضاً يا من رفعت شعارات أخرى فأي الناس أنت..

هل ستغلق الباب أم ستدعه مفتوحاً..؟

أم هل ستظل متردداً تسأل نفسك هذا السؤال فتأخذك الحيرة حتى ينفلت المقبض من بين يديك إذ كنت تظن أنك قادر عليه ممسك بزمامه فيدخل عليك هذا المخلوق المخيف الذي ربما لن تنتبه في البداية إلى قبح منظره وتوحشه (لأنه دخل بإرادتك)..؟

أنت الذي تعرف الإجابة..

لكنه إذا دخل فإنه من الصعب جداً

أن يخرج مرة أخرى.

البحث عن الحياة

"لو كان الدين في الثريا لتناوله

رجال من هؤلاء.."

محمد صلى الله عليه وسلم

ما الذى حمل هذا الرجل الفذ المسمى سلمان الفارسى على ما صنع؟

أتراه كان يعلم ما سيجده، و ما سيعانيه، وما سيلاقيه من الآلام، والمشاق، وطول الأسفار، والبعد عن الأهل والصحاب والأحباب؟

أتراه ظن أن الأمر سهل يسير ما إن يبدأ فيه حتى يجد الهناءة والسعادة والراحة من كل عناء؟

ثم....

أى وقود كان يحرك أعضاءه، ويلهب عزمه، ويقوى قلبه..؟

الأمر المؤكد أنه كان يبحث عن الحياة الحقيقية.

.....

لقد بدأت بالحديث عن سلمان، وما الحديث عنه بمقصودى، وإنما المقصود ما كان يبحث عنه سلمان.. والوقود الذى تزود به سلمان..

والطريق الذى سار فيه سلمان..

إنك واجدٌ من الناس من يكرس حياته للبحث عن شئ معين، ويبذل فيه المال، والوقت بل وقد يبذل مهجته وحياته، لأنه آمن بأن هذا الشئ هو ما يشبعه ويرضيه، ويمنح ذاته السكينة والراحة، ويملأ نفسه بالسعادة والفرح.

وقد تختلف الأشياء التى يبحث عنها الناس باختلاف مشاربهم، وعلومهم، واتجاهاتهم الفكرية والسياسية والدينية، فتجد الباحث فى علوم الطبيعة والأحياء، والباحث فى الرياضيات والفيزياء، والباحث فى الطب والكيمياء، والباحث فى العلوم الإنسانية والاجتماعية، والباحث عن الفن والجمال فى الأدب والشعر، أو غيرها من الفنون.

وربما كان البحث بحق أو بباطل، محرم أو واجب أو مكروه أو مستحب أو مباح.

وبقدر ما أوتى الإنسان من عقل وعلم وتجربة، وعزم وصبر وحرص، تجده يحصّل – بإذن الله – مما يريد، وكلٌ ميسرٌ لما خُلق له.

فالبعض خلق ليكون طبيباً فذاً، والبعض خلق ليكون عالماً بالكمبيوتر، والبعض خلق ليكون عالماً أو فقيهاً، أو عابداً زاهداً، أو خلق ليكون مجاهداً فى سبيل الله، والبعض خلق ليكون أديباً أو شاعراً...

إذن فكلٌ فى مسلك، وفى مشرب مختلف، وكلٌ يرى فيما يعمله ويبذل نفسه فيه، الحق والأهمية، والنبوغ.

ولكنهم على اختلاف منازعهم، وأهدافهم يتفقون فى مسألة واحدة كما قلنا وهى أنهم جميعاً غرضهم الأول والأخير عبر هذه الرحلة الطويلة من الأحداث والبذل والتعب والكد هو: تحصيل الرضاء والراحة والطمأنينة...

ولكن...

إن كثيراً من الناس قد يصل لهذا الهدف فَيُرضى نفسه، ويستشعر أخيراً هذه الراحة العجيبة، واللذة العميقة، والنشوة اللاذعة بعد أن حقق مرغوبه، ووصل لمطلوبه.

ولكن (مرة أخرى)

كم منهم يعتريه بعدها الفتور والنقص..؟

بل كم منهم يدرك متألماً أن ما حصله ليس بشئ، وأن هناك مجاهل لم يعلمها، ومفاوز لم يقطعها..؟

بل، كم منهم يكتشف بعد طول العناء والنصب أنه كان يبحث عن سراب ويفتش عن وهم..؟!

وأى ألم، وأية حسرة يكادان يفتكان بالقلب حين يعلم ذلك.

بل ما ظنك بمن كان ضلاله، ووهمه فيما يُبْعِد عن الدين، ويوقع فيما حذر منه الرب الحكيم فيصير كما حكى الله فى القرآن عن بعضهم:

"قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)" [الكهف].

اشتبكت هذه الخواطر برأسى ودارت بخاطرى على مدى أيام طوال حتى فاضت على الورق. وما كان مفتاح ذلك إلا القرآن، بل كان المفتاح آية واحدة، ولكنها ليس كمثلها آية فى كتاب الله. ولقد وقفت أمامها طويلاً متدبراً وقعها، وكلماتها متسائلاً متعجباً..

نعم.. إنها آية سورة العنكبوت:

"وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" [العنكبوت: ٦٤].

يلفتنا التعبير فى أول الآية بالواو، والنفى الاستفتاحي بالأداة (ما)، ثم سرعان ما نصطدم بعد كلمات قليلة ب(إلا) لنعلم أن فى الأمر حصر وقصر لا يدخله الاستثناء بحال. وأجدنى لا أستطيع الاسترسال لبيان ذلك حتى أعود لما قبل هذه الآية، بل أجدنى أرجع كثيراً، إلى أول السورة لأن سياقات القرآن عجيبة الترتيب فائقة الإحكام، فأنت إن أردتها منفصلة تامة المعنى وجدتها كذلك، ووجدت فيها ما يكفى ويشفى ويعظ ويُفهم ويعلّم ويرقى ويُعجب.

وإن أردتها متصلة متشابكة تردُّ الآخر للأول، والأول للآخر، وتوثق الارتباط بين القريب والبعيد؛ لوجدتها كذلك، ووجدتَ فيها ما يبهر ويدهش ويثير العقل ويشبع النفس ويطير القلب.

وأظن أن المسلك الثاني أولى وأكثر فائدة من المسلك الأول على ما في الأول من جلال وحسن وعلم.

ولترجع معي إلى أوائل السورة، ولا يغرنّك الملل على ترك القراءة فإنك واجدٌ – إن شاء الله – ما يسرك ويدفع مللك، و إن هي إلاّ خواطر وإشارات.

إنها سورة العنكبوت ذات التسع والستين آية، التي يذهلك اسمها المعبر عن مخلوق ضعيف هش، ويدفعك هذا للتسائل: لماذا سُمِّيَتْ بهذا الاسم العجيب؟!

والعنكبوت أنثى وليس مذكراً كما قد يظن البعض، وإن أول ما يرد في ذهن الإنسان حينما يسمع هذه الكلمة معنيان: معنى التشابك، ومعنى الوهاء والضعف. وانقش في ذهنك هذين المعنيين ودعهما الآن حتى نعود إليهما مرة أخرى.

إن السورة تبدأ كغيرها من السور بحروف مقطعة تعجز وتبهر وتثير التساؤل:

ما معناها؟ وإلام ترمي؟ وأياً ما كان معناها فإنها تفجأ المعاند وتبهته، ويقشعر لها قلب المسَلِّم المقر بالعجز.

إذا استعرضت السورة بصورة كلية عامة فإنك تجد معاني: الفتن والجهاد ودعوة الرسل لأقوامهم وتكذيب أقوامهم لهم وكل ذلك في نطاق الاستدلال والرد على المعاندين الذين جحدوا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فذكرتهم السورة بما كان من أسلافهم وما أصابهم من العذاب. ثم يأتى الاستدلال ببمنن الله ونعمه عليهم، ثم بيان حقارة الدنيا وأنها لهو ولعب، وأن الفائز فيها من عاشها وهو ناظر لما وراءها من النعيم الأخروى.

وإذا علمت أن مضمون السورة على ما ذُكر فلك أن تجزم أنها مكية خالصة.

"أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ"

إن الخطاب أولاً ينبه أهل الإيمان، ويقرر مبدأ البلاء والاختبار والامتحان فى هذه الحياة الدنيا..

"وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.."

"وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ.."

"وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا.."

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ.."

"وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ.."

آيات تترى تقذف فى قلب العبد شُعلاتٍ من اليقظة والانتباه، والخشية من السقوط وابتلاع الفتن وترك جهاد النفس والركون للدنيا.

وليكن لك عبرةٌ فى السابقين من الأنبياء والصالحين: نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب ثم موسى.

نوح وإبراهيم بدعوة التوحيد، وترك عبادة الأصنام، ولوط بدعوة قومه الذين اقترفوا فاحشة إتيان الذكران والتى ما سبقهم بها من أحد، وهى أمر مستقبح مذموم عند أحقر الناس وأخسهم إلا من مسخ الله فطرته، كما نرى اليوم (الشواذ) يطالبون بحقوقهم الجنسية فى صراحة فاضحة، ولا حياء ولا خجل!!

ثم موسى الذى ابتلى بخراف البشر، بل ابتلى بطواغيت المال، والمُلْك، والسحر.. قارون، وفرعون، وهامان. وهذه من أعظم فتن هذه الدنيا.

ثم نجد السورة تسرد علينا هذا المثل الذى ضربه الله للناس بحكمته، وقدرته، وبديع بيانه " مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ "

إن العنكبوت مخلوق واهٍ ضعيف، وهى تنسج من شباكها الرهيفة بيتاً، وما يغنى ذلك البناء الواهن عنها من الضرر شيئاً. ولكن الخيوط – بالرغم من ذلك – فيها من التلبيس، والتشابك ما يجعل الواقع فيها فى تخبط واشتباك وارتباك ربما لا يستطيع منه فكاكاً.

ألا ترى الدنيا هكذا...؟

ثم تأمل العلة فى ترك الوقف على قوله " وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ " حيث إن وصل الآية أولى إذ لو وُقِفَ لكان المعنى أن كل أحد يفقه هذه الحقيقة ويحذرها، وأن الدنيا واهية لمن ركن

إليها، وكان قوله "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" للتمنى والتحسر على مصيرهم، وهذا ليس الأوْلى بل الوصل أبلغ حيث يظهر جهلهم، ويبين حمقهم فإنهم لو فقهوا هذه الحقيقة وأبصروا بقلوبهم ورأوا بأعينهم هذا الوهن والضعف؛ ما ركنوا إليه ولا لجأوا. إن الذين ركنوا لمثل هذا السجن والقيد يعلمون وهاءه وضعفه، ولكن عميت قلوبهم فلم يلتفتوا لنهاية الحياة وغايتها. إنه الجهاد والعمل وترك الراحة والبذل للنجاة من اللبس والفتن، وما أشد جهلهم وحمقهم إذ لم يفقهوا ذلك.

وقد ذكرت هذه الفاحشة العجيبة، فاحشة قوم لوط، فى هذه السورة، وكفى بذكرها هنا بياناً واستدلالاً على قذارة الدنيا وقبحها على ما فيها من متعٍ زائلة زائفة.

وظل التعبير القرآنى يمهد طويلاً، ويبين رذالة أهل الباطل ومآلهم، وأجر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، حتى إذا علمت ذلك واستيقنت منه، ويُرْهِنَ لك على فساد معتقد أهل الباطل، وجحدهم، وسفههم،

وحمقهم؛ جاء التعبير ليظهر أن ما كل ذلك إلا لأن.. "وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ"

وقدم الواو هنا وكأنه يقال لك: أعلمت كل ما سبق؟ أفقهت ما سردته عليك من أمثلة وقصص (لا يعقلها إلا العالمون)؟

إذن فشأن الدنيا لهو ليس إلا لهو، ولعب ليس إلا لعب. والسياق هنا قُدِّم فيه اللهو على اللعب بخلاف سياقات القرآن فى السور الأخرى حيث قدم اللعب على اللهو.

قال الرازى فى تفسيره:

المسألة الثالثة: قال هناك: {إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} – يعنى فى سورة الأنعام – وقال ههنا: {إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ} فنقول لما كان المذكور هناك من قبلُ الآخرة وإظهارهم للحسرة، ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بله نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد، وأما ههنا لما كان المذكور من قبلُ الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها

من غير استغراق فيها، ولعاصمٍ يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو. انتهى.

فتقديم اللهو هنا أنسب للسياق حيث إن السورة تقبح فى عمومها الدنيا وما فيها من غرور، وعتو ، واستكبار، وفتن...

ثم..

"وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"

وابتُدئتْ هذه الجملة الاستئنافية بالواو كذلك، وأكدت بإن، واللام لنفى أي شبهة أو شكٍ فى تلك الحقيقة المقررة أن الدار الآخرة هى الحيوان أى: دار الحياة الحقيقية.

وإذا تصفحت القرآن فلن تجده ذكر الآخرة بصيغة (الحياة الآخرة)، وإنما يقال عن الدنيا (الحياة الدنيا) فقد تكررت لفظة الحياة أو حياة فى القرآن فى اثنين وسبعين موضعاً كما ذكر المعجم المفهرس، وكلها مقترنة بوصف الدنيا (صيغة الدنو والسفول) إلا ستة مواضع منها أربعة فى معرض الذم والتقبيح وموضعان اثنان فقط فى معرض الثناء، ولكنه ثناء مخدوش..!

الموضع الأول فى قوله تعالى: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" [البقرة: ١٧٩].

١- والموضع الثاني فى قوله تعالى: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" [النحل : ٩٧].

ولا يخفى عليك أن تنكير اللفظتين مقصود ومراد: فأنتم لكم فى القصاص نوع حياة فى هذه الدنيا وهو حفظ حياة الباقين من الناس بردع القاتل (على ما فى الأمر من قتل)، وهى كذلك حياة مكدرة بألم فِراق من قُتل، بل ومن قَتل.

وفى الآية الأخرى برغم وصفها بأنها طيبة فإن فيها تكاليف وعمل وخوف ومشقة.

نقول إن الآخرة لم تقترن بكلمة الحياة فى القرآن، فإما أن تذكر وحدها (الآخرة)، وإما أن يقال (الجنة)، أو (عند ربك)، أو نحوها.

فلما جاء هذا السياق، واحتاج الأمر لمقابلة واضحة بينة، وكان المطروح أن تقابل الحياة الدنيا بوصف الحياة الآخرة؛ لم يجر الأمر

باستخدام هذا اللفظ لما فيه من المشابهة بالحياة الدنيا ولو فى الصيغة المستعملة، بل قُصد نفى أي شبهٍ على الإطلاق لذا كانت لفظة (الحيوان) هى الأكمل والأبلغ والأنسب، وسبحان الذى جلت حكمته وعظمته وقدرته وكمل بيانه. ولذلك لا تجد هذه الكلمة فى موضع آخر فى القرآن، وما ذلك إلا لعزتها، وغلوها، وعلو قدرها، وكأنها كذروة جبل.. وهل للجبل إلا ذروة واحدة..؟!

وأيضاً فالباحثون الحقيقيون عنها قلة قليلة فناسب أن تفرد فى القرآن، ولا تتكرر والله أعلم.

قال القرطبي:

(وإن الدار الآخر لهى الحيوان) أي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها.

والحيوان يقع على كل شئ حي.

وحيوان عين في الجنة. انتهى.

ويقول الزمخشري فى كشافه:

{وَإِنَّ الدار الاخرة لَهِىَ الحيوان} أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها، فكأنها في ذاتها حياة. والحيوان: مصدر حي، وقياسه حييان، فقلبت الياء الثانية واواً، كما قالوا: حيوة، في اسم رجل، وبه سمى ما فيه حياة: حيوانا [كما] قالوا: اشتر من الموتان ولا تشتر من الحيوان. وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب، كالنزوان والنغصان واللهبان، وما أشبه ذلك. والحياة: حركة، كما أن الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة، مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة. انتهى.

والسؤال الذى يطرح نفسه لماذا ذكر كلمة الحيوان وهى تدل على كائن حى؟

وفى ذلك يقول الرازي فى تفسيره:

المسألة السادسة: كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك؟ فنقول الحيوان مصدر حي كالحياة لكن فيها

مبالغة ليست في الحياة والمراد بالدار الآخرة هي الحياة الثانية، فكأنه قال الحياة الثانية هي الحياة المعتبرة أو نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦] وكانت هي محل الإدراك التام الحق كما قال تعالى: {يَوْمَ تبلى السرائر} [الطارق: ٩] أطلق عليها الاسم المستعمل في النامي المدرك. انتهى.

و«يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الحيوان، وهو يسعى لدار الغرور!».

ثم تأمل حسن الوقف عند قوله "لَهِيَ الْحَيَوَانُ" حيث ترك الوصل هنا أبلغ وأولى، وذلك فى مقابلة آية (العنكبوت) السابقة التى كان الوصل فيها أولى وأبلغ.

وحسن الوقف هنا " وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ " علموا ذلك أم لم يعلموه، جحدوا ذلك أم لم يجحدوه، أقروا به أم لم يقروه، استكبروا عنه وغضبوا منه أم لم يغضبوا؛ كل ذلك لا ينال من كونها هى الحيوان، وأنها الحياة الحقيقية الخالدة الباقية.

"لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"

قال الأشمونى فى منار الهدى: ولو وُصل لصار وصف الحيوان معلقاً بشرط أن لو علموا ذلك. قاله السجاوندى. انتهى.

وما أجود الختم بمعانى الجهاد مرة أخرى. وفى هذا بيان حقيقة الدنيا، وأن الفلاح فيها لا يكون بالقعود والركون والرضا والاطمئنان بها، بل سبيل الأنبياء والصالحين ودعاة الخير فيها أن يقوموا بالله، ولله، وفى الله وذلك هو تمام الإحسان، وهم المحسنون الذين نالوا معية الله الخاصة..

"وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ"

.....

ألا ترى الآن سلمان رضى الله عنه..

قد حمل زاده القليل وقطع كل هذه المسافات على التعب، والنَصَب..

رمال ورياح..

بعزيمة قوية وقلب لا يلين للخطوب، ولا ينثنى عن تصميمه برغم أنه قلب رقيق شفاف علم هذه الحقيقة التى غفل عنها الناس أو

أكثرهم فما رأوها، أو رأوها مغبرة مخدوشة كصورة فى مرآة مشدوخة..

فما أحلى أن يرى الإنسان ويبصر بدون أن تكون على عينيه هذه الغشاوة اللجوج اللحوح التى لا يستطيع لها زوالاً، فيبصر ما حوله بلا شوب..

وبلا غبار..

وبلا زيف..

البحث عن اللحظات

لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم

لجالدونا عليه بالسيوف.

(إبراهيم بن أدهم)

إنها اللحظات الكونية الساحرة الأخاذة التي لا مثيل لها..

التي لا تأتي في العمر إلا مرات قليلة، و السعداء الحقيقيون من يلتقطونها من بين ركام هذه الدنيا المليئة بالملهيات.

تلك اللحظات التي يبحث عنها كل إنسان.. كل مخلوق يتنفس على هذه الأرض. كل باحث عن السعادة وكل شاعر بالجمال وكل مريد له..

تلك اللحظات التي إن نلتها فلن يسعك العالم على رحابته..

تلك اللحظات التي تود لو تجمد العالم وتوقف الزمان حتى تتمتع وتستمرئ كل جزء من جزء من الثانية فيها..

تلك اللحظات التي توقن حقيقة أن قلبك يطير من بين جنبيك ليحلق في السماوات والتي لا يوفيها حقها عبارة متواضعة تقال في مثل هذا الوقت، وذلك حين يقول القائل:

لقد كدت أطير من الفرحة..!

تلك اللحظات التي تستشعر فيها أن الحجب قد رفعت، والأرض توقفت وزالت تلك الغشاوات...

لقد فهمتَ أخيرا جوهر الحياة ومكنون الدنيا لقد كشف لك جانب من الحقيقة الغائبة.. لمحة خاطفة تبهر الأنفاس وتعليك إلى طبقات الخلص من البشر وتشعرك بالخفة والانطلاق وتحررك من قيود البشرية.. تتسع عيناك رغما عنك ويتقافز قلبك في صدرك حتى تكاد تمسك به حتى لا ينطلق محلقا في السماء..

برقة سريعة شهقت بها إذ لا يتحمل الإنسان كثيرا من تلك اللحظات في هذه الدنيا ثم عدت إلى أرضيتك الفانية العادية وبهتت سريعا تلك اللحظة الكونية النورانية ورجعت تستشعر حالك فإذا بك قد ثقلت على الأرض مرة أخرى ولكن بقي في ذهنك بقايا منها وبقي راسخا في فهمك أن مثل تلك اللحظات الخاطفة والسعي لها والبحث عنها هو ما يبقيك حيا في هذه الدنيا المليئة باللحظات الثقيلة والساعات السقيمة والسنين الحالكة...

تلك اللحظات إنما تراها وتكاد تمسك بها في يقظة للتوبة صادقة بعد سنين الإعراض والبعد..

في تحقق دعوتك بعد إذ رفعت يديك ضارعا ترجو شيئا ملحا...

في لمسك طفلك الأول وشهود المعجزة الربانية عيانا ودموعك التي تركتها تسح دون استحياء...

في رعشة متهجد بالليل رق قلبه وذل لسانه بأعذب التنزيل بين يدي العظيم الجليل...

يقشعر بدنك ويغلبك البكاء وتذوب حبا وامتنانا وشكرا وتدرك في نلك اللحظات النفيسة أنك لامست جنة الأرض والفردوس المفقود في هذه الدنيا....

والأمر بعد هذه ليس بانتظار مجيئ تلك اللحظات وترقب هبوطها المبهر كالإلهام أو نحوه بل بصنعها وإنشائها كذلك وتتبع المواقف والأعمال التي تكون سببا لها...

وقد يظن البعض أن هذا الكلام خيال كاتب أو لغو قائل ..

لا.. فعندنا علم بتحقق هذه اللحظات في مثل ما حدثتك به من قبل ولقد أحس بهذه اللحظات كثير ممن سبقونا بالأعمال التي أهلتهم لنيل تلك السعادة في هذه الدنيا الدنية ..

{وفديناه بذبح عظيم}

إنها لحظة كونية هائلة في حياة إبراهيم الخليل وحياة ولده إسماعيل عليهما السلام ...

تخيل معي لحظة نزول ذلك الكبش الكبير من جبل (ثبير) ليدرك إبراهيم عليه السلام أي رب رحيم يعبد وأي حكمة وعظمة تنطق بها الأحداث.. طاعة إبراهيم ونزوله لأمر ربه العزيز بذبح ولده الأول الذي رزق به وقد نيف على الثمانين وقد بلغ السعي وأصبح مما يعلق به فؤاد الأب الشفيق الرحيم لكن طاعة الله في قلب الخليل أعظم وإيمانه بالله كبير فكان البلاء المبين وكان الذبح العظيم وكذلك تسليم إسماعيل لأمر الله وأمر أبيه لأنه يعلم أن ذلك طاعة لله وليس له منها بد...

تقشعر لها بدنك فكيف بإبراهيم وكيف فرحته حين فدى الله عز وجل ولده.

لحظة مذهلة

قال أنس بن مالك:

(لما كان اليوم الذي دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء)

لقد خرج الرجال والنساء والصبيان إلى مشارف المدينة منذ أن بشروا بمقدم الرسول الكريم الذي سمعوا عنه وما رأوه بعد وتاقت أنفسهم لرؤيته بعد أن صدقوا به وآمنوا بالغيب فلما علموا أن الشهادة آتية استشرفت أنفسهم واشرئبت للقيا ذلك الرسول النبي الأمي الذي فاقت أخلاقه وأخباره كل ما ألفوه وعرفوه من قبل...

لقد كان يوما هائلا ولحظة فارقة في تاريخ المدينة المنورة وتاريخ أهلها بل وتاريخ الإسلام كله وتاريخ البشرية جمعاء..

لحظة محلقة ...

(الجنة ورب النضر إني اجد ريحها من دون أحد)

إنه أنس بن النضر الذي تخطت عبارته الجبارة حواجز الزمان والمكان وحواجز المعقول فوجد في هذه الدنيا شيئا ما يصدق أحد وجوده عليها...

كيف شم هذه الرجل الفذ ريح الجنة وهو بعد لم يمت ولم يقتل وكيف أيقن هذا اليقين العظيم إنها لحظة لو لم تقشعر لها الأبدان فما بقي في الدنيا شيء يحس إنها لحظة من اللحظات المحلقة ولا يجد المرء لها وصفا ولا مثيلا....

لحظة الراحة الحقيقة (عند أول قدم في الجنة)

لما سئل الإمام أحمد رحمه الله عن الراحة ما قال أشياء عن الدنيا ولا ذكر المنازل والبساتين والأموال وإنما انصرف كلامه مباشرة إلى الآخرة... ليس هناك من راحة في الدنيا بل إنها

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

قصد الإمام الباقية وترك الفانية...

تلقي أحمالك وما ناء به كاهلك وترغب إلى الله ربك الرحيم فتجد الراحة الحقيقة وتستشعر قيمة التعب الذي أشقيت به بدنك في الدنيا رغبة في النعيم التالد المستمر...

لحظات إثر لحظات

يبحث القلب ويفتش..

ما يستريح إلا بمثلها ولا يهنأ إلا في ظلها..

فهل بحثت أو نويت أن تبحث...؟

وهو يقرأ الرسالة

لا تسألي عنا فإنا لم نزل

في درب حسرتنا الطويل نسير

كلَّت يدي والباب كلَّ

وما أجاب صرير

(**عبد الرحمن العشماوي**)

وسط أرض الخيال والأمانى .. مشى الشاب...

حلق بفكره فوق مياه الواقع الأليم إلى جزر الزهور والجمال والقوة.....

تخيل أن الطرق من نصاعتها وبياضها كالثلوج الممهدة الممتدة حتى الأفق الساحر.....

مشى الشاب داخل حدائق غناء على جانبى الطريق.....

وجد على الأرض شيئاً يلمع.....

أدرك أنه غطاء صندوق صغير... فتح الصندوق وأخرج أوراقاً قد حفّها القدم.....

فض الخاتم متلهفاً.....

أحس بحفيف أوراق الرسالة بين يديه يكاد ينطق.....

يكاد يتكلم ويبثه أشجانه وأحزانه وآلامه، وأيضاً أيامه الجميلة وآماله.....

فتح الشاب الرسالة وبدأ يقرأ:

"السلام عليك أيها الشاب..

إليك أنت أقول هذا الكلام، إليك أنت خاصة أبعث هذه الرسالة وأنا أعلم أن عليك عبء تبليغ هذه الرسالة، وأنا أعلم أيضا أنه لن يقوم بتبليغها حق البلاغ إلا أنت أو من هو مثلك.

أخصك بهذه الرسالة، بهذه الكرامة لأن قلبك المتوهج بالأمل الباحث عن الحق لن يركن للنوم والراحة، لن يُعلق آماله على أكتاف غيره، لن يتقاعس عن القيام بواجباته بحق.

بم أبدأ خواطرى معك.... لقد مررت بالكثير ورأيت وعاصرت الكثير والكثير من الأحداث، والمواقف، والمواقع، والأشخاص، والأمراء، والقواد على اختلاف الأزمنة والأمكنة وسمعت الكثير والكثير من الكلمات..

رأيت الصادقين، ورأيت الكاذبين

رأيت المخادعين، ورأيت المخلصين

رأيت المتهجدين المتعبدين القائمين الراكعين الساجدين...

ورأيت اللاهين العابثين الضالين المتعطلين...

أريد أيها الشاب

أن أبثك خواطرى، وتتزاحم الكلمات عندى....

أريد أن أنتقى من أحمال ذكرياتى ما يبث فيك القوة والعزيمة والإصرار.

أريد أن أرى فيك أمثال السلف الكرام... أمثال الرجال الحقيقين، لا أشباه الرجال الحاليين.

اعلم أيها الشاب أن أخطر وأشرف شئ فى هذه الدنيا هو الزمان... الوقت

وإن شئت أن تَسِمَنى فأنا قطعة من الزمان....

وأنفس ما يعنى به المرء وأغلى ما ينبغى أن يُحافظ عليه الإنسان فى هذه الحياة الدنيا هو الزمان، فضياع الزمان خسارة لا تعود، ودونها خسارة الأموال والأولاد والصحة والناس جميعا، وكما قال قائلكم:

والوقت أنفس ما عُنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيعُ

وسأحكى لك أيها الشاب...

سأحكى ولن أضن عليك بالعناية والتوجيه...

سأحكى لك عن أناس عرفوا قيمة الزمان وعرفوا أن هذا الإنسان إنما هو أيام إذا ذهب يوم ذهب بعض الإنسان حتى يأتى عليه وقت لا يبقى منه شئ.

سأحكى لك عن أناس عرفوا هدفهم وغايتهم بينما أناس هذا الزمان فى بعد عنهم بل فى أبعد البعد

سأحاول أن أروى نبتتك الغضة بتواريخ دماء الأسلاف

ستراودك الأحلام

وتجرى فوق سحاب الباطل

فوق الأوهام

سأُذكرك بأقوام كان الواحد منهم أمة

لكن.....

فى صورة إنسان

*** * * ***

هل تذكر أيها الشاب...

فى وجدانك.... فى أعماق أعماقك

هل تذكر هذه المعركة الفاصلة بين الإسلام وبين أهل الكفر والطغيان

بدر..... حدثت فى مثل هذا الزمان ...

يوم اللقاء.. يوم الفرقان.. يوم التقى الجمعان

كانوا قلة ومع ذلك كانوا فى عزة كانوا أتباع الهادى صلى الله عليه وسلم

جاهدوا أنفسهم قبل أن يجاهدوا رموز الكفر وطواغيته

قاموا بحق الله عز وجل فى أنفسهم أولاً وفى أهليهم قبل أن يمسكوا بالسيوف وتراق منهم الدماء

فما بال أهل هذا الزمان لا يراعون هذا الحق ولا يعظمونه ونَدُر من يعلمه منهم حق العلم

*** * * ***

سأحكى لك أيها الشاب ولن أبخل.....

أذكر أنى عاصرت أُناسا أوتوا القران... حُمّلوا أمانته فما ضيعوها وما هجروها وما نسوها

عاصرت أُناسا كانو يقرأون القرآن ويحفظونه ويعملون به حتى يُخالط لحمهم وعظامهم،

حتى تخالط بشاشته قلوبهم، حتى يكون الواحد منهم قرآنا يمشى على الأرض مثل قائدهم ومربيهم..

ومربى الأمة محمد عليه الصلاة والسلام.

وفى مثل هذا الزمان كان للقرآن معهم أحوال أى أحوال، فكانوا يحبون طول القيام فى هذه الليالى المباركة

حتى إنهم كانوا يُصلون طوال الليل حتى إذا انصرفوا يقولون لخدمهم: أسرعوا ، يخشون أن يفوتهم الفلاح أى السحور

كيف لا وقدوتهم ومعلمهم كان سيد المتعبدين والمتهجدين محمد الأمين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين الذى كان يُطيل القيام...

يقرأ القران فى مثل هذا الزمان حتى حدث حُذيفة أنه صلى معه فى ليلة فقرأ فى ركعة واحدة البقرة والنساء وآل عمران، يقرأ مترسلا إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوذ..

وعاصرت أقواما بعدهم كان منهم من له فى هذا الزمان ستون ختمة يقرؤها فى غير الصلاة وكان يختم أحدهم

فى كل يوم ختمة..!

وهكذا نتعلم ونفهم قول الله عز وجل "ولقد يسرنا هذا القرآن للذكر فهل من مدّكر"

وها أنا أيها الشاب...

أتلفت حولى اليوم فما أرى أحداً مثلهم، لا أجد إلا من هجر القرآن، ومن صلى فإنما يصلى ليؤدى شيئاً ناء بحمله

فما إن ينتهى منه حتى ينتعش قلبه..!

أتلفت حولى اليوم فى دنيا الناس فأجد الذى يقرأ فى الركعة بالكلمتين أو الثلاث ثم ينقر صلاته نقراً فما إن تبدأ الصلاة حتى تنتهى، فلا هو قام ولا تهجد ولا أحس بحلاوة القرآن، ولا ذاق عذوبة القيام بين يدى الرحمن.

*** * * * ***

سأحكى لك أيها الشاب وكلى حسرة...

عن أُناس كان صيام أحدهم صياماً بكل معانى الصيام... أُناس كانوا يعلمون العلم ويعملون به، كانوا يعلمون قول النبى الأمين: "إن الصيام جُنة....."

كانوا يعلمون قوله: "فإذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ولا يفسق فإن سابه أحد فليقل إنى امرؤ صائم"

أُناس كانوا يحفظون صيامهم ولا يضيع وقتهم فى قيل وقال وغيبة ونميمة ولهو وسهو، حتى كان بعضهم إذا صام ولو تطوعا مكث فى بيته يقولون: نخشى أن نلوث الصيام، نحب أن نحفظ صيامنا....

أُناس يصومون لله حقا لا رياءً ولا سمعة، ولا بصورة آلية كما يصوم الناس أو يفعلون كما يفعل الناس.

أما اليوم فتلفت حولك أيها الشاب لتر العجب...

ترى الذين ما صاموا أصلا بل استمرت حياتهم كما هى قبل الصيام فيُفطرون صباحاً ويتغدون ظهراً ويتعشون ليلاً..!

لا يبالون بحرمة صوم أو حتى نظر أُناس و إنكارهم..

وترى الذين إذا صاموا فليس لهم من صيامهم إلا الجوع والعطش وصح فيهم قول نبيهم الناصح الأمين:

"رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش..."

وترى الذين تراكمت لديهم الأطعمة والأشربة تلالاً بل جبالاً

وكل همهم بعد أذان الفطر اغتنام اللحظات والساعات فى أكبر كم من الطعام والشراب واللذات...

وترى أيضا – وأبثها فيك والحسرة والألم يكادان يمنعانى الكلام – المعطلين المبطلين الذين سعد بهم الشيطان فهم عوائق وسدود بين الناس وبين ربهم وطاعتهم...

ترى الذين حشدوا عبر هذه الأجهزة الفضية ألوان السموم وأصناف المهلكات وما رعوا حرمة الله ولا حرمة هذا الزمان الخاص الكريم بل ولا حرمة ما ينبغي عليهم في كل زمان..

وكأنهم يقصدون – وهم يقصدون – أن يصرفوا الناس صرفاً عن ربهم فى هذا الزمان المبارك بما تفننوا فيه من الغثاء من مسلسلات وأفلام وفوازير وبرامج وفساد كبير، ولسان حالهم يقول (يا باغي

الخير أقصر، ويا باغي الشر أقبل) وانقلبت العبارة، وأصبح لها وقع غريب فى القلب والأذن، وأقول صوابها مشتاقا إليه (يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر)

ترى أيها الشاب كل ذلك....

تـراه، ولكن أنى لك أن تدرك ما أدركت، وأنى لك أن تُعاصر وتُشاهد ما عاصرت وشاهدت، وأنى لك أن تقاسى ما قاسيت وتتألم مثلما تألمت، أنا الذى عاصرت النبى صلى الله عليه وسلم تسع سنين ومررت كما قلت من قبل بمشاهد ومواقع وأزمنة وأمكنة ما أظن أحداً علم عنها أو بلغها...

.....

لا أريد أن أملأ قلبك بالأسى والألم

ولكنها نفثات أحاول أن أفرج بها شيئا من هذه الهموم المتطاولة

.....

أعود معك إلى الذكريات الجميلة ولا أريد للرسالة أن تطول

تذكر معى أُناسا مضوا

كان الخير فيهم هو الغالب يتعاهدون بعضهم البعض وكأنهم إخوة، بل كانوا أفضل من إخوة الدم.. وكان أحدهم يضن على أولاده بالمال والطعام لأن أخاه جائع أو عريان أو محتاج...

وكيف لا يكونون كذلك وقد مدحهم الله عز وجل فى قرآنه فقال سبحانه:

" وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ".

وكيف لا يكونون كذلك وقد كان سيدهم وسيد ولد آدم أجمعين أجود من الريح المرسلة بالخير، وما رد سائلاً، ولا منع عطاءاً حتى قال الأعرابى فيه:

"إنه يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة"

كذلك كان متبعوه رضوان الله عليهم متمسكين بهديه صلى الله عليه وسلم...

أحدهم يصحب إلى بيته ضيفاً للنبى صلى الله عليه وسلم ليطعمه فيقول لإمرأته هل عندك من طعام، فتقول ما عندى إلا عشاء صبيتى، فيقول لها: نوميهم إذا طلبوا الطعام ثم إذا جاء ضيفنا وبدأ يطعَم فأطفئى السراج وأوهميه أنا نأكل، فقدموا له عشاءهم وعشاء صبيتهم ثم أصبحوا وقد نزلت هذه الآية "وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ"

هكذا عاش القوم فى مثل هذا الزمان وفى كل زمانهم...

عاشوا على الحقيقة وحيوا على الحقيقة لا كعيش الناس اليوم ولا حياة الناس اليوم قبور فى أجسام..

بل عاشوا قلوبا في أبدان حية...

عاشوا الآخرة وهو يخطون فوق تراب هذه الدنيا

* * * * *

ثم أخيرا أيها الشاب حتى لا أطيل عليك الرسالة

أبثك هذه النفثة الأخيرة طالما أنا تكلمنا عن العيش الحقيقى ولا عيش إلا بذكر الله..

أذكر القوم – وهم القوم – لا يفتأون يذكرون ربهم سبحانه وتعالى، لا يفتر لسانهم ومن قبله قلوبهم عن ذكر ربهم سبحانه بما علموا من قدره عز وجل وقدر ذكره وفضل ذلك، ومنزلة الذكر والذاكرين.

كانت أيامهم عامرة بالكلمات الطيبات، وتالله إنها لمنزلة عالية يبدأ يومهم ب (الحمد لله الذى أحيانا....) فهى أشرف المنازل ثم (اللهم بك أصبحنا...) وهى أرفع المقامات (اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت...) وهى روح المتعبدين (اللهم عافنى فى بدنى اللهم عافنى فى سمعى.....) ونسيم المتهجدين و(حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم...) ورحيق الصالحين (ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين أبدا..) بها تعمر القلوب (بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء...) وتنير الوجوه.. (سبحان الله وبحمده...) وتخشع النفوس (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد....) ويعظم الإيمان فى القلب (استغفر الله.. استغفر الله) بها تُنار الطرق وتؤمن (بسم الله توكلت على الله...)، (اللهم اجعل فى قلبى نورا...) به يبعد

الشيطان وتسكن نفس الإنسان (أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم) بل وبه يأتى أهله (اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا)

وبه يقوم وينام (بسمك ربى وضعت جنبى..)

بل وبه يحيا الإنسان ويعمل ويكدح ويموت (قل إن صلاتى ونسكى ومحياي ومماتى لله رب العالمين...)

أدركت أُناسا أيها الشاب كان عيشهم عيشا طيبا

فأتلفت الآن فأجد الغفلة والنسيان

أجد الإنسان

وقد نسى الله الرحمن

نسى الإيمان

نسى أمانة هذا الدين

نسى كتاب الله

وتاهت منه الطرق

وتاه.....

*** * * * ***

أيها الشاب هل عرفت الآن من أنا

هل عرفت من أكون

(إن شئت أن تَسِمنى فأنا قطعة من الزمان)

(أنا الذى عاصرت النبى تسع سنين)

نعم

أنا رمضان

أنا هذا الشهر الذى جعله الله عز وجل نفحة وسط وعورة أيام العام

أنا هذا الشهر الذى كان يبشر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بمقدمه

أنا شهر رمضان بثثتكم آلامى وآمالى وأحلامى

وجئت إليكم

وأنا شهيد عليكم وعلى أعمالكم

وقصدتك أنت أيها الشاب لتبلغ عنى رسالتى لكل بنى البشر

وأنا أعلم أنك جدير بذلك والسلام.....

*** * * * ***

مشى الشاب وقد قبضت يده بقوة على الرسالة

أحس بحفيف الأوراق بين يديه

ولكن اكتسب الصوت قوة وأملا

وحلق بفكره فوق مياه الواقع الأليم إلى جزر الزهور والجمال والقوة

وأخذ يدب برجليه على الارض

حتى كادت تهتز

وأحس بأن الأرض تستمع إليه

وهو يقرأ الرسالة.

سجود الظل

ما من الدنيا شيء آسى عليه إلا السجود لله .....

(مسروق بن الأجدع)

لا يكاد يختلف اثنان على أن السجود هو أجل، وأجلى مظاهر العبودية.

تنزل هذه الهامة العالية بكبريائها، وشموخها، وصلفها، إلى مكان الأقدام.. إلى الأرض التى داستها أرجل البشر منذ خلق الإنسان..

إلى موضع انهيار الأنفة، والكبر والعتو..

إلى مكان ذلتها، وخضوعها، واستسلامها..

إن السجود عبادة غير كل العبادات فهى صورة تقديس، وتأليه، وخنوع شديد للمسجود له، ولذا كان الملوك القدامى يشترطون على محكوميهم أن يسجدوا لهم لأن هذا قمة الاستسلام والمتابعة، والطاعة. والشيطان يشترط على عُبَّاده ممن باعوا أرواحهم له من الكهان، والسحرة أن يسجدوا له، أو لصنم، أو نحو ذلك ليعلنوا بهذه الفعلة براءتهم من عبودية الله، وكفرهم به، وعبوديتهم للشيطان الرجيم.

وقد سمعت أن بعض الباحثين الأجانب قام بدراسة لهيئة السجود واستخلصوا أن هذا الوضع من أفضل الأوضاع التى يكون فيها

البدن فى قمة الراحة والاستكانة، وأنه من الأوضاع الصحية لجسم الإنسان، ونحن كمسلمين لا ننتظر مثل هذه الدراسات إنما هي توكيد ويقين وحجة على من لم يقر ويذعن.

والله عز وجل له على خلقه باختلافهم آيات وحجج تثبت أن دين الإسلام هو الدين الحق، وأنه ما جاء إلا لصالح البشر، وأنه كلما ترقى الإنسان فى سلك عبودية الله عز وجل؛ اكتسب واستحق هذه المصلحة فى بدنه، وعقله، وولده، وفى كل ملمح – ولو لطف – من ملامح حياته الدنيوية.

ولك أن تعلم أن ما من مخلوق فوق هذه الأرض إلا يسجد لله سبحانه حتى الجمادات، والحيوانات، والنباتات، والأشجار، والظلال، وكل المخلوقات التى تدب فوق الأرض.. "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ" [النحل: ٤٩]

وبرغم ما فى هذه الآية من عظمة وجلال، إلا أنه قد راعنى وأوقفنى – وكأنى أقرأ الآية لأول مرة – قوله تعالى فى الآية السابقة عليها

حيث قال الله: "أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرونَ" [النحل: ٤٨] حيث إن الكلام جاء مختصاً بسجود الظلال.

ومع أن سجود الظلال قد ذكر فى القرآن قبل هذه الآية فى قوله تعالى فى سورة الرعد: "وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ" [الرعد: ١٥]؛ لكن هنا جاءت الظلال تبعاً لمن يسجد لله عز وجل، فالمخلوقات العاقلة تسجد لله، وظلالها تسجد تبعاً لها، وقلنا هنا المخلوقات العاقلة لأن الآية عبرت ب (من) التى تستعمل للعاقل، والبشر داخلون بالأصالة فى العقلاء. ومع ذلك فإن منهم من يسجد طوعاً، وهم أولياء الله وخاصته، وعباده المؤمنين، ومنهم من يسجد كرهاً، وهذا معناه الخضوع والقهر والتسخير الاضطرارى ولا يكون معناه السجود بالبدن لأن السجود عبادة كريمة لا يأتيها الكافرون.

وقد يقول قائل هنا: فكيف يسجد كل شئ لله إذا كان الكافر لا يسجد؟! فنقول له عما قليل يتضح المقال، ففى الآية الأخرى التى

ذكر فيها سجود الظلال فى سورة النحل جاءت كلمة {سُجَّدًا} بالجمع، إذن فهى تعود على جمع، ولا جمع قبلها يمكن العود عليه إلا الظلال، إذن فالسجود هنا متعلق بها. والمقصود: أن كل ما له ظل، فإن هذا الظل يسجد لله، حتى ولو كان ظل كافر.

وعن مجاهد قال: (ظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعا وهو كاره) وبهذا قالت طائفة من مفسري السلف؛ فتبين أن حتى ظلال الكفار تسجد لله سبحانه برغم كفر أصحابها وعنادهم.

والمتدبر لهذا الأمر – أمر سجود الظلال – لابد أن ينصدع قلبه لله، أقول المتدبر، لأن المتدبر هو الذى يدرك حقيقة الشئ ولبه، أما غير المتدبر فلا يدرك جيداً، وبالتالى فلا يتأثر قلبه ولا يخشع أو يلين.

حينما يتخيل الإنسان هذه الجبال الشامخة خاضعة وخانعة لله سبحانه لا تتأبى عليه أو تتكبر كما يفعل جاهلو البشر؛ يلين قلبه

ويذل.. حينما يعلم أن هذه الشمس العظيمة الجرم، الهائلة الحجم تسجد لله جل وعلا.

كما جاء فى الحديث عند مسلم عَنْ أَبِى ذَرٍّ أَنَّ النَّبِىَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ يَوْمًا:

«أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ». قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ تَجْرِى حَتَّى تَنْتَهِىَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِى ارْجِعِى مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِى حَتَّى تَنْتَهِىَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِى ارْجِعِى مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِى لاَ يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِىَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ لَهَا ارْتَفِعِى أَصْبِحِى طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ ؟ ذَاكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا». حينما يعلم الإنسان ذلك يستصغر نفسه، وعبادته.

وقد أوجد الله الشمس، وجعلها سبباً لوجود الظل، وأسجدها هى له، وأسجد كل الظلال له.

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير آية النحل:

(يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى).

قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كلُّ شيء لله عز وجل. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم. وقال مجاهد أيضًا: سجود كل شيء فيؤه. وذكر الجبال قال: سجودها فيؤها.

وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته. انتهى.

فظهر لك من كلام مجاهد – وهو من المزكين فى علم التفسير وإن لم يكن للكلام أثر مرفوع – أن سجود كل شئ فيؤه ، لأنه قد يقول قائل كيف تسجد الجمادات؟

فتبين بكلام مجاهد أن امتداد هذه الظلال على الأرض وانتشارها هو سجود لله عز وجل، والله هو الذى مدها ونشرها سبحانه...

"أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا." [الفرقان: ٤٥، ٤٦]. فالله عز وجل هو الذى مدها، وقبضها، فهى منقادة خاضعة له سبحانه فى البسط والقبض والفئ والزوال.

وقال الفخر الرازى عن آية النحل:

والقول الثاني: في تفسير هذا السجود، أن هذه الأظلال واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد. قال أبو العلاء المعري في صفة وادٍ:

بحرف يطيل الجنح فيه سجوده وللأرض زي الراهب المتعبد

فلما كانت الأظلال تشبه بشكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ، وكان الحسن يقول: (أما ظلك فسجد لربك، وأما أنت فلا تسجد له بئسما صنعت)، وقال مجاهد: (ظل الكافر يصلي وهو لا

يصلي)، وقيل : (ظل كل شيء يسجد لله سواء كان ذلك ساجداً أم لا).

قال الرازي: المسألة الخامسة: وقوله: {سُجَّدًا} حال من الظلال وقوله: {وَهُمْ دَاخِرُونَ} أي صاغرون، يقال: دخر يدخر دخوراً، أي صغر يصغر صغاراً، وهو الذي يفعل ما تأمره شاء أم أبى، وذلك لأن هذه الأشياء منقادة لقدرة الله تعالى وتدبيره وقوله: {وَهُمْ دَاخِرُونَ} حال أيضاً من الظلال.

فإن قيل: الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون؟

قلنا: لأنه تعالى لما وصفهم بالطاعة والدخور أشبهوا العقلاء. انتهى. وانظر إلى فهم الحسن رحمه الله وتدبره لهذا الأمر، إذ يعاتب هذا الذى لا يسجد لله محتجاً عليه بخضوع وعبودية شئ شديد الالتصاق به ألا وهو ظله ..

وقال صاحب المحرر الوجيز فى تفسير آية النحل:

"بعد أن نهضت براهين انفراده تعالى بالخلق بما ذكر من تعداد مخلوقاته العظيمة جاء الانتقال إلى دلالة من حال الأجسام التي على الأرض كلّها مشعرةٍ بخضوعها لله تعالى خضوعاً مقارناً لوجودها وتقلّبها آناً فآناً علم بذلك من علمه وجهله من جهله. وأنبأ عنه لسان الحال بالنسبة لِما لا علم له، وهو ما خلق الله عليه النظام الأرضي خلقاً ينطق لسان حاله بالعبودية لله تعالى، وذلك في أشدّ الأعراض مُلازمةً للذوات، ومطابَقَةً لأشكالها وهو الظلّ...

والتفيُّؤُ: تفعّل من فاء الظلّ فيئاً، أي عاد بعد أن أزالَه ضوءُ الشمس. انتهى.

وقال البقاعى فى (نظم الدرر) عن آية الرعد:

"(ولله) أي الملك الأعلى (يسجد) أي يخضع وينقاد ويتذلل.. (من في السماوات والأرض) لجميع أحكامه النافذة وأقضيته الجارية (طوعاً) والطوع: الانقياد للأمر الذي يدعى إليه من قبل النفس

(وكرهاً) قال الرازي رحمه الله: والكافر في حكم الساجد وإن أباه لما به من الحاجة الداعية إلى الخضوع.. انتهى.

هل علمت الآن عظم هذا الأمر، وجلاله، ووقر فى قلبك كيفه، ورسمه؟

ومازال فى الأمر سعة للمتدبرين، والمتأملين، وأولى الألباب ..

وفى كل شئ له آية.... تدل على أنه الواحد.

فلما جنَّ الليل

تزوَّل عن الدنيا فإنك لا تدري

إذا جنَّ ليلُ هل تعيش إلى الفجر

(**الشافعي**)

بربك هل هناك ما هو أبدع من هذا وأجمل وأبلغ..

من يستطيع أن يواجه هذا السياق ولا يذل قلبه وينخذل لربه..

انظر لهذه الآيات من سورة الأنعام واقرأها، وأمرها على قلبك، ولا تعجل حتى تعقلها وتتدبرها..

ثم بعد ذلك نعود لندندن سوياً

عن هذا البلاغ المبين..

يقول سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آَلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ

قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم باللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾ [الانعام ٧٤: ٨٣]

هل انتهيت..؟

إذن فأخبرنى أى سماء صعدت، وأى أرض قطعت..

وأى يقين أيقنت..؟

.....

ها هو إبراهيم عليه السلام يواجه أباه داعياً وناهياً ومستنكراً لم تمنعه هيبة الأب ولا سلطانه ولا سطوته من أداء هذا الواجب الجليل، ولم تحمله محبة الوالد الطبيعية الفطرية على ترك هذه الرسالة.

لكنه برغم قوة الخطاب وصدمته تلطف مع أبيه غاية التلطف، وتأدب معه غاية الأدب مع أنه وقومه فى ضلال من أوضح وأبين الضلال والانحراف عن دين الله وعبادته.

نجده يخاطبه فى سورة مريم بسياقها الممتع العجيب فيقول متحبباً متوددا: يا أبت..

ويكررها المرة تلو المرة، وفى هذا من رقة قلب إبراهيم وشفقته ما الله به عليم (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)..

يقول تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) ﴾

فبدأ بالاستدلال عليه بالدليل العقلى: أن هذه الأصنام لا تسمع ولا تعقل فكيف تدعوها وترجوها من دون الله، ثم قال:

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) ﴾ فانتقل إلى بيان أن الله عز وجل قد خصه بالعلم، وعلى الجاهل أن يتبع العالم فإن فى اتباعه الصراط المستقيم

والمنهج القويم، فإذا سلك سلك بعلم، وإذا اعتقد اعتقد بعلم، وإذا عبد عبد بعلم، ثم انتقل للأمر والنهى الشرعيين، فنهاه عما نهاه الله عنه فقال: ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ فتلطف له ثانية، وبين له خوفه عليه من الكفر وعاقبته.

وذكر اسم (الرحمن) مرتين. وفى هذا إشعار بفظاعة جرم هؤلاء حيث أغضبوا الرحمن الذى عادته أن تسبق رحمته غضبه، وكذلك فيه تلويح بالتوبة وقربها إن هم تركوا ماهم عليه وعادوا لرحمة الرحمن، لكن أباه أعرض ولم يجد جواباً لهذه الحجج الدامغة وهذا البيان البالغ، وماكان منه إلا أن هدد وتوعد: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾، وهكذا حال أهل الباطل إذا وجد الحجة عليه لجأ إلى السبيل المعهودة: الظلم والطغيان.

وكان الأولى له أن يشكر لابنه لأنه يريد أن يخرجه من الظلمات إلى النور. وقد كان والد إبراهيم – كما رووا – قيماً على الأصنام، أو خادماً لها فأى ظلمة وانغلاق تكون فيه..

نعود لسياق آيات الأنعام :

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾

قال ابن كثير:

أي: نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله، عَزَّ وجل، في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}...

ثم قال:

فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره، حتى رأى ذلك عيانا، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه، وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة، كما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه في حديث

المنام: "أتاني ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا أدري يا رب، فوضع كفه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لي كل شيء..." الحديث. انتهى.

ولكن لماذا جاءت هذه الإراءة بعد اتهام وتضليل ابراهيم لقومه..؟

ولم احتاج إبراهيم هنا لليقين الكامل..؟

إن المرء إذا أراد أن يناظر أحداً ويحاجه فإنه أحوج ما يكون أولاً للعون من الله عز وجل.

وأن يكون على يقين تام من هذا الشئ الذى يناظر وينافح عنه، وجعل الله إدراك المحسوسات أثبت فى النفس من إدراك المدلولات القائمة على البرهان ولهذا طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فلما رآها وعاينها اطمأن قلبه أعلى درجات اليقين والإيمان، وكذلك سأل موسى ربه أن يراه وينظر إليه ليزداد حباً ويقيناً..

قال ابن حزم:

ولكن للعيان لطيفُ معنى له سأل المعايَنة الكليمُ

فبقدر ما تتضح الرؤية يحصل اليقين، وبقدر ما تزداد الغشاوة يحصل الشك والريبة ،فإذا كان المناظر عنده شك – ولو خفى ولطف – فيما يحمل هو من أفكار ؛كان ذلك سبباً فى وهن حجته وخفة استدلاله، فأراد الله أن يرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، أياً كان المقصود بهذه الإراءة: بصرية أو قلبية، ليجعل إبراهيم من الموقنين بربوبيته وألوهيته، وليجعله على أرض صلبة من الإيمان ولذلك انتقل السياق مباشرة – بطريقة فريدة – إلى حجاج هؤلاء ومناظرتهم ودحض باطلهم.

.....

ويرد هنا سؤال لماذا عبر بالفعل المضارع (نرى) المفيد للحال والاستقبال، ولم يأت بصيغة الماضى، فلم يقل (أريناه) باعتبار أن فعل الإراءة انتهى..؟

يقول الآلوسى:

عدل إلى صيغة المستقبل حكاية للحال الماضية استحضاراً لصورتها حتى كأنها حاضرة مشاهدة. انتهى.

وفى ذلك إشعار بديمومة أثر هذه الرؤية فى قلب إبراهيم عليه السلام، ودوام تثبيت الله عز وجل له، وبهذا نفهم سر التعبير بهذا اللفظ خاصة، وسبب تميزه والله أعلم.

وأيضاً فقد أثبت الواو فى قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ وفى ذلك زيادة معنى، ولا يصح أن يقال إن الواو زائدة فما هناك شئ زائد أو لا فائدة فيه فى القرآن العظيم.

قال الرازى بعد أن ذكر الخلاف الوارد فى الواو:

الإراءة قد تحصل وتصير سبباً لمزيد الضلال كما في حق فرعون قال تعالى: {وَلَقَدْ أريناه ءاياتنا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وأبى} وقد تصير سبباً لمزيد الهداية واليقين. فلما احتملت الإراءة هذين الاحتمالين قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: إنا أريناه هذه الآيات ليراها، ولأجل أن يكون من الموقنين لا من الجاحدين والله أعلم.

وذكر الرازى كذلك أن هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ ومفهوم قول الرازى أن التقدير فى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾: نريه ذلك ليكون كيت وكيت وليكون من الموقنين، وحذف المعطوف عليه للإشعار بأن المصلحة فى ذلك ليست واحدة بل فيها من وجوه المصالح الكثير.

أى أن إبراهيم استفاد من هذه الرؤية أشياء كثيرة أُبْهمت ولم تذكر دل عليها وجود الواو. انتهى.

فأى إعجاز وأى بلاغة وأى بيان بإثبات حرف واحد.. ولكنه الحكيم القدير سبحانه.

وقال الطبرى:

لو لم تكن فيه الواو كان شرطا على قولك: أريناه ملكوت السموات والأرض ليكون.

فإذا كانت الواو فيها فلها فعلٌ مضمر بعدها: و{ليكون من الموقنين} أريناه قال أبو جعفر: وهذا القول أولى بالصواب في العربية. انتهى.

وهكذا بعد أن استيقن إبراهيم زيادةً صار مهيئاً لمناظرة أهل الباطل.

وقد ذكر أهل التفسير هنا خلافاً شهيراً: هل كان إبراهيم هنا ناظراً أم مناظراً؟

يعنى هل كان يريد أن يصل للإله ويعلم هل هو الكوكب أم القمر أم الشمس، أم كان يناظر قومه، ويلزمهم الحجة..؟

لاشك أنك قد علمت من أول الكلام أنا لا نؤيد القول الأول ،بل الأحرى أن يضرب عنه صفحاً، إذ كيف يكون صحيحاً وإبراهيم هو إمام الحنفاء النقى الخالص من الشرك، الذى أتى ربه بقلب سليم

قال البغوى فى معالم التنزيل:

وكيف يتوهم هذا على من عصمه الله وطهّره وآتاه رشده من قبل وأ خبر عنه فقال: "إذ جاء ربه بقلب سليم" وقال: ﴿وكذلك نري إبراهيم

ملكوت السموات والأرض﴾، أفتراه أراه الملكوت ليوقن فلما أيقن رأى كوكبا قال: هذا ربي معتقدا؟ فهذا ما لا يكون أبدا. انتهى.

وقد استدل البعض بقول إبراهيم عليه السلام: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ على أنه كان مقام نظر ،ولكن رد عليهم بأنه قال (هذا ربى)، قال الشهرستانى: فياعجباً من لا يعرف رباً كيف يقول ذلك، ورؤية الهداية من الله غاية التوحيد ونهاية المعرفة والواصل إلى الغاية كيف يكون فى مدارج البداية..؟ انتهى.

ومن أقطع الأدلة على أن مقام إبراهيم كان مقام مناظرة واحتجاج قول الله عز وجل فى نهاية هذه القصة كلها ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن هذا الكلام، وهذا الاستدلال من إبراهيم هو حجته على قومه وبرهانه عليهم بعد أن أنكروا ألوهية الله وعبدوا تلك الكواكب والأصنام.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ

لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

انتظر إبراهيم حتى أتى الليل، وقد كان قوم إبراهيم عليه السلام (الكلدانيون فيما قيل) يعبدون الكواكب ويصورون لها أصناماً، وتدرج إبراهيم معهم من الأدنى إلى الأعلى من الكوكب إلى الشمس ،ولم يكتف بالشمس فى الاستدلال أو بواحد من هذه الثلاث – وقد كان كافياً – ولكن أراد ألا يجعل لهم حجة ولا كلاماً ويؤكد ويقرر هذه الحقائق بمنتهى الوضوح والقوة.

ها هو الكوكب الذى تعبدونه..

سأقول معكم أنه رب..

رب..؟

هل تدرون معنى الكلمة..؟ هل تعلمون حقيقتها..؟

كيف يكون رباً مَن الأفولُ والغيابُ حاله وديدنه..؟

قال صاحب المقاييس:

أفل: الهمزة والفاء واللام أصل في معنى الغيْبة.. وكل شئ غاب فهو آفل

فدع عنك سُعدى إنما تُسعِف النوى

قِرانَ الثريَّا مرةً ثم تَأْفِلُ. انتهى.

بل إن الأفول أشد إغراقاً من الغياب.

قال العسكرى فى الفروق اللغوية: الفرق بين الأفول والغيوب أن الأفول هو غيوب الشئ وراء الشئ ولهذا يقال أفل النجم لأنه يغيب وراء جهة الارض، والغيوب يكون في ذلك وفي غيره. انتهى.

فهذا الآفل الغائب لا يكون رباً حياً قيوماً، لا يقوم بنفسه ناهيك عن أن يقيم غيره.

هذا الكوكب، هذا القمر، هذه الشمس آفلة غائبة مخلوقة مأمورة، سيّرها ودبر أمرها، ونظم دورانها رب قدير عظيم أعظم منها وأجل...

ولكن مادمتم على ما أنتم عليه من الجهل والإعراض والاستكبار فإنى.. ﴿بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

يعلن الحنيف براءته من الشرك وأهله.. ينزه ربه.. ثم..

يتوجه إليه وحده..

وهكذا كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يفعل إذا استفتح الصلاة – وورد أنه كان يخص ذلك بصلاة الليل – فيقول: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا

وما أنا من المشركين. إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين...) الحديث

وهذا حال العبد الخالص القلب لربه، يتذكر دوماً أن وجهته، وعبادته، وحياته، ومماته لله عز وجل..

ولكن..

ما هذا..؟

لقد حاجوه وجادلوه بالباطل.. فأى كبر وتعنت وغشاوة وضلال..؟

وانظر إلى قوله لهم.. ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ..﴾

كيف يسوغ ذلك منكم بعد أن قامت البراهين والأدلة على ربوبية الله وبان فساد معتقدكم ووهنه..؟

وكيف يسوغ ذلك منكم وقد هدانى ربى لتوحيده ونوره وصراطه..؟

وانظر كيف عبر بلفظة (أتحاجونى) بما فيها من مد مثقل فى موضعين، وصعوبة نطقية واضحة حتى على أهل التميز فى القراءة، وفى هذا إشعار بصلابتهم على باطلهم، وطول معالجتهم للجدل والخصومة، وأيضاً معاودتهم للحجاج مرة بعد مرة.. وقد يؤيد هذا ذلك السياق المحكم الوارد فى سورة الأنبياء وكيف كسر إبراهيم عليه السلام أصنامهم وسألوه من فعل هذا بآلهتهم، فبين عوارهم وألزمهم الحجة باستدلال عقلى قاطع ساطع ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فقد رجعوا شيئاً، بل ووسموا أنفسهم بالظلم.. ثم غلبت عليهم شقوتهم وغفلتهم (فنكسوا) وعبر بهذه اللفظة البليغة

المفيدة للانقلاب والتغير – والنَكْس: قلب الشيء على رأسه، فكأنهم كادوا يعتدلون وتنتظم أفهامهم وعقولهم ثم جذبتهم غفلتهم وجهالتهم وتعطيلهم لعقولهم باتباع الآباء والأجداد إلى حضيض الأرض والطين.

ثم بعد حجاجكم، واستكباركم، وانتكاسكم تريدون لى أن أخاف ولو أدنى مخافة..؟

وكيف يخاف إبراهيم وقد رأى ملكوت السماوات والأرض، وبلغ أعلى مراتب اليقين: عين اليقين، وهم لا يخافون..؟

إنما الأمن للذين آمنوا، والذين لم يداخل إيمانهم شرك ولا شك. أمن فى الدنيا، وهذه من أفضل النعم التى يمكن أن يرجوها إنسان على هذه الأرض، وقل من يجد الأمن الحقيقى فى هذه الدنيا العجيبة.

وكذلك أمن فى الآخرة من كربها وهولها.

واهتداء فى الدنيا وتوفيق وكلاءة.. واهتداء للمنازل العليا فى الجنة فى الآخرة..

سلام عليك يا إمام الحنفاء..

أيها الفائز بالخلة

وبالقلب السليم..

وبجوار رب العالمين..

فلولا تشكرون

الشكر لله شكرا ليس ينصرم

شكرا يوافق ما يجري به القلمُ

يأتي البلاء لتمحيص وتذكرة

كأن كل بلاء نازل نعمُ

((**أبو مسلم البهلاني**))

تتوالى على ابن آدم النعمةُ تِلْوَ النعمة، والفضل تلو الفضل، والأرزاق تلو الأرزاق، ولكن قلَّ من يحمد أو يشكر...!!.

إن الإنسان جُبِلَ على العصيان والجحود والظلم، وكأن كل واحد من البشر قد خُلق فيه – كما قيل – إلهٌ صغير، إذا وَجد فسحة فإنما هو يكبر ويزيد، ويريد أن يأخذ من صفات الإله الحقيقي، وكلما ازداد تودُّدُ الله له بالنِّعم، ازداد هو بُعْدًا وكِبْرًا، وعتوًّا وفخرًا.

والعجب – كل العجب – من مخلوق صغير ضعيف عَيِيٍّ، لا يقيم نفسه فضلاً عن غيره، يتودد له الإلهُ الخالق الرازق الكبير القوي الحي القيوم، وصدَق من قال – ولا يصح إلى النبي صلى الله عليه وسلم–: إن الله يَخلق ويُعبَد غيره، ويَرزق ويُشكر سواه، خيرُه إلى العباد نازل وشرُّهم إليه صاعد، يتودَّدُ إليهم بالنعم ويتبغَّضون إليه بالمعاصي.

إن الإنسان قد يُفتن بما يمنحه الله من نِعَم، فيظن أنها له وأنها باقية لا تفنى، فيغتر ويعجب ويتجبر على ربِّه، فضلاً عن الناس، وما سبب كفر صاحب الجنتين – كما في سورة الكهف – إلا أنه

ظنَّ أن جنته لن تبيد أبدًا، وهذا من غرور الإنسان وقلة عقله؛ فإنه حين يرى الشيء في هذه الدنيا – وهو مخلوق أولاً وآخرًا – حين يراه باقيًا على حاله ثابتًا، له شأن يتكرر ولا يتغير، فإنه يظن أن هذا الشيء باقٍ لا يبيد، ولا يلحقه التبدل والفناء.

كل الناس ترى الشمس تطلع أولَ كل يوم، وتغرب آخر كل يوم، في نظام دقيق لا يفتر ولا يتغير، فيظن الجاهل المفتون أنها بهذا قد أصبح لها قوة خاصة، وشأنٌ فريد يجعلها باقية خالدة، لا يجري عليها قانون الفناء، وينسى – بجهله وغروره – الخالقَ المنشئ المجري المسير لها.

أقول: إن هذا هو سبب كفر صاحب الجنتين؛ فإنه لما رأى جنته بزينتها وما فيها من ثمار وأشجار وأنهار، ظنَّ هذا الظنَّ الفاسد، وذَهَل عن قدرة الخالق، وكفَر وكذَّب بالساعة والبعث، فاستحق عقاب الله – سبحانه وتعالى.

أظن أن مثل هذه الخواطر كانت ستَطرق ذهنَك إذا قرأتَ قول الله – تعالى– في سورة الواقعة – وهو ما حفَّزني لهذا الحديث أصلاً –:

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ – ٧٠].

فإنها أيضًا آيات عظيمات تحدث كل يوم، ما أحوجنا لتدبرها وتفهمها؛ حتى نحاول أن نبتعد – وما أصعب ذلك! – عن جحود صاحب الجنتين.

الأرض تنبت بالنبات والزرع، والمطر ينْزل من السماء فتجري الأنهار بالمياه فتسقي الناس والنبات والأنعام، فأراد الله أن يُذكِّر هؤلاء الجاحدين المغرورين المتطاولين – بنعمه، وبأنه هو المتفرد بالنعم والإنبات، وإنزال الأمطار وإجراء الأنهار، فخاطبهم بأعلى خطاب وأبينه وأحكمه.

إن نظْمَ القرآن معجز أيَّما إعجاز، بليغ أيما بلاغة، وإنها من المواطن التي ينعجم فيها اللسان عن القول والبيان؛ وإنما هي

إشارات ولمحات.. انظر إلى الاستفهام في قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ} إنكم ترون ما حرثتم وتعرفونه حق المعرفة {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ} أي هل أنتم الذين زرعتموه وأنبتموه وجعلتموه ناضجا طيبا؟!

وهذا استنكار وتوبيخ على قلة عقولهم ووقوعهم في هذه الذهول عن قدرة الخالق تبارك وتعالى وفرحهم بقدرتهم وفعلهم وزرعهم، وهو ما نبت بقدرتهم ولا بفعلهم ولكنا حن الذين أنبتناه برحمتنا ولطفنا وأبقيناه لكم رحمة بكم؛ لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "لا يقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت فإن الله هو الزارع" صححه الألباني.

وهو نهي إرشاد وأدب – كما قال القرطبي – لا نهي تحريم؛ لأن الله سماهم زرَّاعًا قال تعالى: {يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}

وقال الماوردي: تتضمن هذه الآية أمرين: أحدهما: الامتنان عليهم بأنه أنبت زرعهم حتى عاشوا؛ ليشكروه على نعمته، الثاني: البرهان

الموجب للاعتبار؛ لأنه جعل ما كان ميتًا زرعًا طيبًا ناضجًا، وفي هذا البرهان إقناع لذوي الفطر السليمة.

ثم قال تعالى: (أم نحن الزارعون) وذكر كلمة الزارعون تأكيد فإن الكلام يتم بقوله: (أم نحن) ولكن صرح بذكر (الزارعون) ليؤكد نسبة الزرع لله سبحانه وحده.

{لو نشاء لجعلناه حطاما} تلويح بقدرته وعزته وقهره سبحانه وتعالى {لجعلناه} قبل استوائه مكسرا مهشما غير منتفع به. وانظر كيف أتى بلام التوكيد في قوله {لجعلناه حطاما} مع أنه لم يأت بها في الآية الأولى وفي ذلك نكتة ولكن نكمل سرد الحديث ونعود لها بعد ذلك...

قال تعالى: {فظلتم تفكهون} تندمون وتتحسرون على ما أصابكم ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم فتقولون {إنا لمغرمون بل نحن محرومون} أي أصابتنا مصيبة ونقص وما ذلك إلا لأنا نستحق الحرمان.

ثم قال: {أفرأيتم الماء الذي تشربون} استفهام تقريري آخر؛ حيث إنكم تعرفون هذا الماء جيدا وذكر نعمة الماء البارزة وهي الشرب ليقررهم بنعمه سبحانه. هذه الماء الذي أنزله لتحيوا به أنفسكم وتسكنوا به عطشكم والشراب يكون تبعا للمطعوم ولهذا قدم الطعام في الآيات قبل ذلك.

ثم خاطبهم: {أأنتم أنزلتموه من المزن} وفي هذا تعجيز لهم فما أنتم الذين أنزلتموه.. وبالغ في التعجيز فذكر المزن العالية فأنى لهم أن يصلوا إليها بل أنى لهم أن يجعلوها مليئة بالمطر؟!

{أم نحن المنزلون} وأكد كذلك بذكر كلمة المنزلون إمعانا في إرجاع الفضل إليه تبارك وتعالى وإظهارا لحقارتهم وضعفهم فأنتم عرفتم أني أنا الذي أنزلته إليكم وما أنزلته إلا لمصلحتكم فلم لا تشكرونني بإخلاص العبادة لي ولم تنكرون قدرتي على إعادته وتحويله؟!

فلو نشاء {جعلناه أجاجا} مالحا مرا غليظا لا تنتفعون به في شرب ولا زرع ولا غيره {فلولا تشكرون} فهلا تشكرون الذي صنع لكم ذلك..!

نعود لنكتة القول ألا وهي: لماذا أكد باللام عند ذكر الزرع فقال {لو نشاء لجعلناه حطاما} ولم يؤكد عند ذكر الماء؟

قال ابن الأثير في المثل السائر:

(إن اللام أدخلت في المطعوم دون المشروب لأن جعل الماء العذب مالحا أسهل إمكانا في العرف والعادة والموجود من الماء المالح أكثرمن الماء العذب.. وأما المطعوم فإن جعله حطاما من الأشياء الخارجة عن العادة وإذا وقع يكون عن سخط شديد فلذا قرنه باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره) فالناس تستبعد عادة أن يتعرض زرعها لسفة أو حريق أو تلف ومن رحمته سبحانه أنه لم يجعل هذا أمرا معتادا في زرع الناس بل حفظه لهم وما ذلك إلا ليشكروه. أما الماء العذب فمعروف أن له شبيها ونظيرا وهو الماء المالح وهو قريب ومشاهد في دنيا الناس وعلى ذلك فناسب التأكيد في الآية الأولى ولم يناسب في الآية الثانية.

والله عز وجل لا يعاجل بالعقوبة سبحانه بل يعرض بالعذاب لعل الناس تؤوب وترجع وذكر الواعيد الشديد على سبيل التعريض

باستخدام حرف الامتناع (لو) لأن رحمته غلبت غضبه وسبقته سبحانه وتعالى وفي ختامها قال {فلولا تشكرون}

والله لا يريد عذابا لأحد بل هو اللطيف الشكور الحليم سبحانه.. {ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم} [النساء: ١٤٧] فهو تبارك وتعالى شاكر يشكر القليل من العمل ويغفر الكثير من الزلل.

ومن تحببه لعباده أنه يحب الحمد والشكر.. يحب أن يحمده الناس ويشكروه كثيرا وذلك أن الناس إذا علموا مننه تبارك وتعالى عملوا بمقتضاها فشكروه سبحانه وما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطى – يعني من هدايته للحمد – أفضل مما أخذ. يعني من النعمة كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والعجب ممن هو كذلك كيف لا يُحمد ولا يُشكر؟! ولكنه سبحانه عارف بعباده خبير بصير بهم مطلع على أحوالهم يعلم أن قد قل من يحمد ويشكر بلسانه فضلا عن أن يشكر بجوارحه وأعماله لذا قال سبحانه: {وقليل من عبادي الشكور} [سبأ:١٣]

فاللهم لا تحرمنا شكرك وحمدك.. وجدد لنا هذه النعمة التي تحتاج في تجددها شكرا جديدا.. والحمد لله رب العالمين.

لا يغير حتى يغيروا

إذا زهد العبد فى الدنيا أنبت الله الحكمة فى قلبه

وأطلق بها لسانه

وبصره عيوب الدنيا وداءها ودواءها.

(سفيان الثوري)

مقدمة:

المشهد يمتلئ ببارود وأشلاء وركام متناثر

جثث في الأرجاء لولا الدم لميزت الأشكال.

أركان البيوت تهدمت ولم يبق إلا السقف وقد وقع على الأرض

فاختزل الدار إلى لا شيء وأنت تشاهد..

هاتان العينان هل تبصران؟

هل هذا القلب بداخلك ينبض؟

هل يتحرك؟

هل يسرى فيه الدم أم أن الدم فوق الشاشات وفوق الأرض وفوق الدُّور وفوق العالم كله...

أغشى الإبصار؟

هل هذا القلب يحس بشئ لما تقتل هذي الطفلة؟

هل هذا القلب ينز بجرح لا يندمل وإنْ ضمدته؟

ما كنت أظن بأني سوف أعيش لأبصر من حولي هذا الهذيان.

.....

نظر الله لأهل الأرض جميعا يوماً ولم يكن في الأرض إلا بقايا أصلحت أنفسها مع ربها ومقت الله الإنسان.

ثم بعث الله عز وجل بعد هذه الفترة النبي العدنان محمد عليه الصلاة والسلام هادياَ ومبشراَ ونذيراَ برسالة للبشر جميعاَ ليغير وجه الأرض وقلوب الناس وكانت أول كلمات الرسالة كبيرة ضخمة تحمل معني التغيير معنيً لو فطن الناس لفحواه لنجوا جميعاً.

قال الملَك: "اقرأ" وكان النبي لا يقرأ والله يعلم ذلك والملك يعلم ذلك وهذه أول خطوات التغيير.

ثم يعود الرسول لبيته مرتجفاً "دثِّروني". "زمِّلوني".

لا..

ما ينبغي أن يكون الرسول كذلك

غيِّر ذلك

"يا أيها المدثَّر قم فأنذر"

"يا أيها المزمِّل قم الليل إلا قليلا" قوارع للتغيير.

ولذا لما جاء الرسول ليدعو قومه كرهوا ذلك؛ دفعوه ورفضوه وسبوه وكذبوه

لماذا؟

لكراهية التغيير.

نحكي كتب الأدب أن الأعشي أراد أن يذهب إلي النبي صلى الله عليه وسلم ويمدحه وينال عنده فحذره صاحبٌ له ناصح فقال: إنه يأمرك بترك أمر هو بك رافق ولك موافق.

فقال وما ذاك؟ قال شرب الخمر والزنا والقمار. فرجع ولم يأتِ النبي صلى الله عليه وسلم، فمن الخاسر هنا..! وكما قال طرفة بن العبد:

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتي

وجدّك لم أحفل بما قام عُوَّدي

فمنهن سبقي العاذلات بشربةٍ

كُميتٍ متي ما تعل بالماء تُزبِد

وكَرِّي إذا نادي المضاف محنَّباً

كسِيْد الغضا نبهتهُ المتورد

وتقصير يوم الدجْن والدجن معجبٌ

ببهكنةٍ تحت الخباء المعمَّد

وهكذا كان عيشهم ما بين شرب الخمر والقتال العصبي القبلي والاستمتاع بالجوارى الملاح في أخبيتهن.

فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم ما كانوا يحبون التغيير وكل الناس جبلوا علي كراهية التغيير طالما أنه يجد ما يحب ويتمتع بما يتمتع به من ملاذ وشهوات فإذا حدث له خدش في هذه المنظومة لم يقنع ولم يهدأ حتى يُرد ما كان إلى ما كان..

لذلك كذبوه..

ونلمس أهمية هذه القضية – قضية التغيير- في كل نصوص الشريعة قرآناً وسنة وما حدث ما حدث لهذه الأمة الخيرة التي كانت – وما زالت إن شاء الله – خير أمة أخرجت للناس؛ ما حدث هذا الذل وهذه المهانة التي نحياها إلا لأن الأمة لم تفقه قول الله عز

وجل: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال} [الرعد:١١]

فبقدر ما تتغير الأمة تجد التوفيق والسداد والتمكين من عند الله عز وجل.

ولا تحسبن المجد تمراً أنت أكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر

وانظر كيف قرن الله عز وجل بين إرادته بالناس سوءاً وبين تركهم للتغيير وكأنه يحذرهم: إنه يعلم صلاحهم وفسادهم فاستمعوا واتبعوا الهدي المستقيم وإلا فإن السوء واقع بكم. لأن الناس ما أهونهم إذا هم عصوا أمر الله عز وجل وهذا ما فقهه الصحابي الجليل أبو الدرداء حين قال بعد أن نظر إلى سبي الأعداء يوما....

قال باكياً: "ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره".

فهذا رجل من العقلاء الذين فقهوا سنة الله التي مضت في خلقه وأن عز الأمة لا يُنال إلا باتباع هذه الرسالة التي ما أرسلت لتترك

علي الرفوف يعلوها التراب ولا لتوضع في السيارات في علب من القطيفة وإنما أرسلت بخير دين وبخير شريعة.

قال تعالى:

{وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضي لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون} [النور:٥٥]

ويا عجباً كيف فقه ذلك الأعداء ولم يفقهه أهلنا الذين هم أولي الناس بالحق ونحن أمة لا تسود ولا تعلو إلا بالدين.

{واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون} [الأنفال: ٢٦]

فالأمة بغير الدين وبغير الحبل المتين شتات وفرقة وضعف وبالدين قوة وعز وعلو...

ولله در عمر رضي الله عنه لما قال:

"إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله".

نلمس أهمية هذه القضية – قضية التغيير– في هذا الحديث الجليل المعروف والذي أعرضت عنه الأمة وقد عد أهل العلم العمل به فريضة سادسة بعد الأركان الخمسة

قال النبي صلى الله عليه وسلم"من رأي منكم منكراً فليغيره....."

والتغيير بالمستطاع باليد أو اللسان أو القلب وذلك أضعف الأيمان

ويا ليت شعري أين الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر؟

أين تلك الطائفة التي تتبعها الأمة إلى الصلاح والإصلاح..؟

{ولتكن منكم أمة يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون} [آل عمران:١٠٤]

لقد شرع الشارع الدية علي العاقلة وهم عصبة القاتل الذكور وما لهم من ذنب في قتل هذا القتيل وما هذا إلا لحكمة الأمر بالمعروف أن يأخذوا علي أيدي بعضهم البعض فينجو الفاسد بنصح الصالح.

وهذا ما بينه الصادق المصدوق في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الجليل الجامع الذي كأني به يلخص حال أمتنا اليوم ويضع العلاج أبيض ناصعاً لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد:

قال صلى الله عليه وسلم: "مثل القائم علي حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا علي سفينة فأصاب قوم أسفلها وأصاب قوم أعلاها فكان الذين في أسفلها إذا أرادوا أن يستقوا الماء مروا علي من فوقهم. فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فلو تركوهم وما أرادوا لهلكوا وهلكوا جميعاً ولو أخذوا علي أيديهم لنجوا ونجوا جميعاُ" كذلك حال الأمة فالأمة تركب سفينة واحدة والسفينة كبيرة مترامية الأطراف ربما لا يشاهد الأول الأخر لكن تقصير الأول يؤثر في الأخر وقوة وعلو الأخر تؤثر في الأول، وبالعكس فلا تحسبنّ أن ما يحدث في مكان من أمة الإسلام من خراب ودمار وقتل واعتداء وانتهاك وما لا يصدقه عقل من كل أنواع الإبادة الشاملة؛ لا تحسبنّ أن ما يحدث من ذلك ليس لنا فيه نصيب أو كفل من الوزر نسأل الله الغفران

الغافل النائم من يظن ذلك..

الغافل النائم اللاهي من يظن أن حال الأمة سينقلب بين عشية وضحاها إلي الأفضل..

الغافل من يظن أن من ينادون بشعارات بعيدة عن الإسلام سيمكن لهم أو سيتوحدون ضد عدوهم

لا يا أخي فإن الصدق الآن أصبح عزيزاً!

لذا فلن أخبرك أنا بل يخبرك الصادق المصدوق إذ يقول:

"إذا تبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع وأخذتم أذناب البقر وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلي دينكم"

فهل أتت المراجعة؟

كم انحرفت الأمة علي ما كان عليه الهدي الأول هدي النبي وهدي سلفه الكرام..

كم من التغيير تحتاج الأمة حتى تخرج من هذه البوتقة المشتعلة التي سقطت فيها؟

ما كمّ اليقظة التي نحتاج حتى نفيق من هذا السبات العميق؟

ما كمّ الحياة التي تحتاجها القلوب حتى تعود نقية تقية؟

قوة كبيرة خارقة تحتاجها الأمة حتى ينزاح هذا الران وهذا الركام من فوق سواد القلوب. قوة خارقة تحتاجها الأمة حتى تزول هذه النكت والنقط التي غطت القلوب فباتت لا تحس ولا تشعر...

باتت تحاكي الصخر الأصم في صلابته..

باتت تحاكي الجبال والجلاميد في القسوة..

باتت تحاكي الحجارة الجامدة في حدتها وشدتها..

"وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار"

.....

خاتمة:

وقف الطفل الباكي

مشدوهاً

يرمق ما كان يسمي يوماً.. بيتاً

يرمق ما كان يسمي يوماً بالشارع، بالحارة.. بالسيارة

يرمق موت أبيه

وموت أخيه

يرمق موت الأم

وموت الدار

وموت الكل

عدا الأشرار

وقف الطفل قليلاً يلتقط الأنفاس

لكن هذا الصاروخ الآثم

غطي الآفاقْ

بأشلاء الشهداءْ

رقد الطفل يراقب إصبعه

لكن كيف ابتعد الإصبع عنه

أدرك أن المشهد غام

وأن الجسد قد انضم لسلسلة الشهداء.

موت المهاجر

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هلْ أبِيتَنَّ لَيْلَةً

بوَادٍ وحَوْلِي إذْخِرٌ وجَلِيلُ

وهلْ أرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ

وهلْ يَبْدُوَنْ لي شَامَةٌ وطَفِيلُ

(بلال بن رباح) رضي اللّه عنه

من بين كل قصص الهجرة العبقرية التي تمس شغاف القلب، وتلمس أوتاره فضلاً عن رحلة النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه التي تسطر بماء الذهب؛ تقف قصة الصحابي جندب بن ضمرة (وقيل ضمرة بن جندب، وقيل جندع) الذي كان حبيس مكة وأراد أن يهاجر إلى الله عز وجل ويذهب إلى المدينة موقفاً فريداً على قصره ووجازته.

ها هو يأخذ قراره في حزم وعزم ويجهز راحلته وعدته على كبر سنه، ويقول لما نزل قول الله عز وجل {أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا..}:

اللهم قد أبلغت في المعذرة والحجة ولا معذرة ولا حجة.

ثم يخرج وهو شيخ كبير مهاجراً إلى الله ورسوله، ولكن سرعان ما تنتهي القصة سريعاً إذ يموت في الطريق، ويسدل الستار على حياة هذا المهاجر...

ولكن..

إنها ليست قصة تروى وكلمات تسطر، ولكنه موقف وصبر وعاطفة وإيمان.

إنه الصدق مع الله عز وجل..

إنها الهجرة الحقيقية التي بلغت منتهاها..

وهل يتمنى مسلم أكثر من أن يموت مهاجراً لربه عز وجل.

إن حدث الهجرة حدث ضخم، حدث جليل وكبير، ويستأهل أن يقف الإنسان مع كل تفصيلة من تفاصيله وقفة، بل وقفات على مستوى التشريع وعلى مستوى البطولات..

ولكن يؤثر في العبد مثل هذه المواقف التي تعبر عن صدق البذل وعن نصاعة هذا القلب وفذاذته وتفرده وخلوصه من العوائق والأمراض..

هذا رجل علم علماً يقينياً بما عند الله عز وجل ونظر لقومه الذين لم يهاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخشي أن يكون مع الذين فرطوا في حق من حقوق الله تعالى فهاجر بقلبه قبل أن يتحرك بجسده وهذه هي الهجرة الحقيقية..

وصدق الأمين محمد صلى الله عليه وسلم لما قال:

"المهاجر من هجر ما نهى الله عنه..".

وقد يتعرض الإنسان للسخرية والسب والشتم والتندر ولا يبقى إلا ما كان لله سبحانه.

ولا يذكر التاريخ عن هؤلاء الممتنعين الكافرين شيئاً ذا بال، ولكن يفخر برجال من أمثال جندب.

إن المسلم الحق إذا أراد أن يقيس نفسه، ويعلم في أي حال هو عند ربه؛ فلابد أن يضع نفسه على هذا المحك في مقابلة أمثال هؤلاء السلف الكرام (مع الفارق الضخم في العمل والفضل والزمان والمكان) ويسأل نفسه هذا السؤال:

هل من الممكن أن أهاجر وأترك كل شيء..؟

.....

إن الإنسان مجبول بفطرته على الأنس بالناس، وعلى محبة الاجتماع والوداد والصلة بالآخرين، ولا أحد يطيق أن يعيش وحيداً، ولا أحد يستطيع – بسهولة – أن يهجر منطقته الوادعة الآمنة

التي فيها أهله ورزقه وسكنه وأصدقاؤه وأقرباؤه، هذا ليس سهلاً على البشر وليس هناك زر للهجرة في صدر العبد بمجرد أن يضغط عليه يقوم بعمل مسح لكل الملفات المتعلقة بالمكان، ويمحو كل الذكريات والبسمات والضحكات بل والبكاء والحياة والموت..

إن عبقرية هذا الجيل واضحة في زمن الهجرة أوضح ما يكون في مثل هذا الخيار الصعب الذي اختاروه، وهذا الانسلاخ الكامل من كل ما سبق، وما ذلك إلا متابعة ونفرًا وراء النبي صلى الله عليه وسلم لذلك فمعنى الهجرة أعمق بكثير من مجرد قطع مسافات ومكابدة أسفار وصبر على عناء طريق وعر..

بل مكابدة هذه النفس التي تشدك إلى الأرض والتي هي ألصق شيء بك هي المكابدة الحقيقية والهجرة الحقيقية.

ولا أدل على عظم هذه القصة وعظم شان هذا الرجل، وجميل عمله وإخلاصه من نزول قرآن فيه، وكفى شرفًا ومكرمةً أن يذكر هذا الرجل إذا تلي قول الله عز وجل:

{وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} إذ نزلت في هذا المهاجر الذي مات ولما تبدأ رحلته..

وكأن هذا هو الرد على من قال من المسلمين (كما روت لنا كتب السير والتراجم):

مات قبل أن يهاجر فلا ندري على ولاية هو أم لا. فنزلت:

{وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا...} الآية.

وقول القائل: أعلى ولاية هو أم لا. المقصود به قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ...} الآية

وتأمل قول الرجل: اللهم قد أبلغت في المعذرة والحجة، ولا معذرة ولا حجة.

فهذا رجل علم ما ينبغي عليه من حق الله عز وجل ثم أحسن غاية الإحسان في أداء هذا الحق، ولم يمنعه كبر سنه وضعفه ومرضه من أن ينفر لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

وما أحسن ما قال ابن القيم عن طريق سفر المهاجر:

(وأما طريقه: فهو بذل الجهد واستفراغ الوسع فلا ينال بالمني ولن يدرك بالهوينا وإنما هو كما قيل:

فخض غمرات الموت واسم إلى العلا... لكي تعل بالعز الرفيع الدائم

فلا خير في نفس تخاف من الردى... ولاهمة تصبو إلى لوم لائم

ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين:

أحدهما: أن لايصبو في الحق إلى لوم لائم فإن اللوم يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه ويجعله صريعا في الأرض

والثاني: أن تهون عليه نفسه في الله فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال فمتى خافت النفس تأخرت وأحجمت وأخلدت إلى الأرض.) انتهى.

ثم لا تنس أن المسافر العادي يسافر وهو يعلم حال المنزل الذي سيأوي إليه فيكون مطمئناً لوجود السكن والملجأ، ووجود الطعام والشراب..

أما حال المهاجر فإنما هو الانتفاض والترك دون معرفة بحال ذلك المنزل الآخر وهذا ملمح من ملامح عبقرية الهجرة: كون المهاجر لا يدري عن هذا الموطن الآخر شيئاً إلا الاسم فقط، لكن ماذا سيكون حاله بعد ذلك...؟

هل سيجد المأوى..؟

هل سيجد العمل..؟

هل سيجد الزوجة..؟

هل وهل وهل.....؟

كل ذلك قد فوض المهاجر فيه ربه ليقضي فيه برحمته ما يشاء إذ يقين المهاجر وتوكله أعلى درجات اليقين والتوكل، وهجرته دليل ساطع على ذلك.

ثم لا تنس أيضاً ألم الفراق وترك الأوطان، إنه أمر مؤلم يحز في النفس حز السكين الثلماء وما سميت (هجرة) إلا لهجر الأوطان ومنازل العيش والطفولة الأولى...

وهذا بلال رضي الله عنه تجيش مشاعره يوماً وهو على فراش الموت فلا يملك نفسه ويفيض حنينه إلى أماكن طفولته ويفاعته، ويتمنى فقط لو رأى تلك الأماكن يوماً من الأيام:

فهل أردنْ يوماً مياه مجنَّةٍ وهل يبدونْ لي شامةُ وطفيلُ

وما شامة وطفيل إلا جبلان، ولكنها المنازل والبقاع التي شهدت أحداث شبابه وذكرياته الحميمة ولو نطقت لباحت له بحبها وحنينها هي الأخرى، فضلا عن شوقه لمكة البلد الحرام الذي هو أحب البقاع إلى الله.

وحديث الهجرة حديث طويل ذو شجون، ولكن قد تكون العِبرة في عَبرةً صغيرة..

وأختم الكلام بما ذكره صاحب (أسد الغابة) عن جندب رضي الله عنه قال: كان له أربعة بنين فقال: اللهم إني أنصر رسولك بنفسي

غير أني أذود عن سواد المشركين إلى دار الهجرة فأكون عند النبي صلى الله عليه و سلم فأكثر سواد المهاجرين والأنصار فقال لبنيه: (احملوني إلى دار الهجرة فأكون مع النبي صلى الله عليه وسلم) فحملوه فلما بلغ التنعيم مات فأنزل الله عز وجل: "ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله..." الآية.

فاللهم هجرة لدينك وسنة نبيك قبل الموت.

أعقل الناس

فانظرْ بعقلكَ إن العين كاذبةٌ

واسمع بقلبك إن السمع خوَّان

(**الأعمى التطيلي**)

ليست حياة المرء في الدنيا سوى

حلمٍ يجر وراءه أحلاما

(**إبراهيم الباروني**)

قال ابن الجوزي في صفة الصفوة:

"بلغنا عن عبد الواحد بن زيد أنه قال: ركبنا في مركب فطرحتنا الريح إلى جزيرة، فإذا فيها رجل يعبد صنماً، فقلنا له: من تعبد؟ فأومأ إلى الصنم. فقلنا: إن معنا في المركب من يسوي مثل هذا. ليس هذا بإله يعبد. قال: فأنتم لمن تعبدون؟

قلنا: الله عز وجل قال: وما الله؟ قلنا: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي الأحياء والأموات قضاؤه فقال: كيف علمتم به؟

قلنا: وجه هذا الملِكُ إلينا رسولاً كريماً فأخبرنا بذلك. قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: لما أدى الرسالة قبضه الله. قال: فما ترك عندكم علامة؟

قلنا: بلى ترك عندنا كتاب الملك. قال: أروني كتاب الملك، فينبغي أن تكون كتب الملوك حساناً. فأتيناه بالمصحف فقال: ما أعرف هذا. فقرأنا عليه سورة من القرآن فلم نزل نقرأ ويبكي حتى ختمنا السورة. فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعصى. ثم أسلم

وحملناه معنا وعلمناه شرائع الإسلام وسوراً من القرآن. فلما جن علينا الليل وصلينا العشاء أخذنا مضاجعنا. فقال لنا: يا قوم هذا الإله الذي دللتموني عليه إذا جن عليه الليل ينام؟

قلنا: لا يا عبد الله، هو عظيم قيوم لا ينام. قال: بئس العبيد أنتم، تنامون ومولاكم لا ينام. فأعجبنا كلامه. فلما قدمنا عبادان قلت لأصحابي: هذا قريب عهد بالإسلام فجمعنا له دراهم وأعطيناه فقال: ما هذه؟ قلنا: تنفقها.

قال: لا إله إلا الله، دللتموني على طريق ما سلكتموها، أنا كنت في جزائر البحر أعبد صنماً من دونه ولم يضيعني – يضيعني وأنا أعرفه....؟!"

"بئس العبيد أنتم، تنامون ومولاكم لا ينام.."

بهذه العبارة العجيبة واجه ذلك الرجل أولئك الأفاضل من السلف الذين وجدوه في عرض البحر يعبد صنماً، ولم يكن يدري عن الله شيئاً فعلموه وعرفوه بربه، وسرعان ما تجاوب معهم بفطرته

الأصيلة، ولما وجدهم ينامون أنكر ذلك عليهم لأنه ليس من الأدب أن ينام العبد وسيده غير نائم ..

لقد عمل هذا العقل السليم عمله الذي أنتج هذه النتيجة التلقائية العفوية..

وكذلك الحال في قوله لما قرأوا عليه من القرآن:

"ينبغي لصاحب هذا الكلام ألا يعصى"

هذه الاستنباطات المباشرة التي أطلقها ذلك الرجل تعبر عن مدى ارتباط العقل بالتدين وأن أعقل البشر أدينهم، وهوفي إنكاره عليهم النوم إنما عنى أنهم لم يتعبدوا لله حتى تكل أجسامهم ويتعبوا رغباً ورهباً لهذا الإله القيوم الذي لا ينام لأن النوم لا يستغني عنه الإنسان..

ولكنه محق تماماً في القولة الأخرى: أن صاحب هذا الكلام ينبغي ألا يعصى.

إن العجب من هذا الإنسان الذي كان أبعد ما يكون عن الله عز وجل، ثم هو بمجرد أن قرأوا عليه كلام الله آمن وسلم، وقال هذه

المقولات الرائعة، واستقام على الأمر هذه الاستقامة، بل تزهر في قلبه أسمى الأعمال القلبية من التوكل واليقين فيقول:

أنا كنت في جزائر البحر أعبد صنماً من دونه ولم يضيعني – يضيعني وأنا أعرفه....؟!

إن ما يدهش ويبهره في هذه القصة هذا العقل البارع الجميل الذي يصل إلى الحقائق والمعاني مباشرة بسهولة ويسر لا تجده عند كثير من أهل الإسلام الذين ولدوا عليه، ولكن عقولهم في غيبة عن إدراك أوضح الواضحات.

وعلى مر العصور تجد عقلاء البشر يقفون من أقوامهم الكفار الجاحدين مواقف تدل على وفرة عقلهم وحكمتهم، ولنا حكمة وعبرة في أخبار ورقة بن نوفل، وزيد بن عمر بن نفيل وأبي بكر الصديق رحمهم الله ورضي عنهم، ومن قبلهم صاحب ياسين، وماشطة ابنة فرعون، وغيرهم كثير ولا يخلو عصر من أمثال هؤلاء الأفذاذ أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة..

وهذا يذكرنا حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه البخاري ومسلم:

«اَلنَّاسُ مَعَادِنُ [كمعادن الذهب والفضة]، خِيَارُهُمْ فِى الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِى الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا..»

فمن كان في الجاهلية صاحب خلق كريم، وفطرة سوية كان كذلك بعد الإسلام إذا تفقه في الدين واستقام عليه.

ولكن قد يتعقب ذلك متعقب، ويورد أمثلة لمن كان في الجاهلية جباراً أو ظالماً أو فاسقاً أو عابد صنم ككثير من الصحابة، وكهذا الرجل الذي أوردنا قصته.

وللجواب على ذلك نبين أن الناس الذين تطرقهم الهداية صنفان:

فصنف نشأ على كرم النفس وحسن الخلق وسويِّ الفطرة فهذا حين تأتيه الهداية تجد مستراحاً تركن إليه وتستقر وسرعان ما تملأ شغافه وشعابه بنورها الذي توافقت خيوطه مع مسالك قلبه ونفسه فهذا اختار اللهُ له ألا يشقى في بداية أمره، وهؤلاء هم القوم لو سلموا من مكايد الشيطان بعد ذلك.

والصنف الثاني قوم اهتدوا بعد مشقة ومجاهدة وحملتهم عقولهم، وهيأهم ذكاؤهم بإذن الله عز وجل ليدركوا مآلات الأمور فقهروا أنفسهم على اختيار الهداية لما علموا أن ذلك فيه الفوز والفلاح، وتركوا ما كانوا عليه من البعد والضلال. وما بين هذين الصنفين وما حولهما معادن ودرجات وألوان لا يحصيها إلا من خلقهم وعدَّدَ ألوانهم وأحوالهم.

وربما تماس هذان الصنفان فينتج عن ذلك نماذج عالية..

وقد يمتزجا فينتج عن هذا الامتزاج أناس هم القمم الشامخة ففطرة سوية وعقل سديد أمثال أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي ما سجد لصنم قط، وما أنكر الناس عليه خلقاً وما عاش كما عاشوا في ظلمة وجاهلية جهلاء. وكان إلى ذلك سلماً لجيرانه وأصدقائه حتى يحلب الشياه لنساء الحي وترتفع رغوة اللبن التي يألفونها في حَلْبه..!

فهي فطرة وخلق كريم، وافقت قلباً سليماً وعقلاً مستقيماً فلا عجب أن كان أول المؤمنين بصديقه القديم محمد صلى الله عليه وسلم أول ما بعث إليه.

بادر أبو بكر وكأنه كان ينتظر هذا التمام لما كان قد تلبس ببعضه من الخير فكان أخير الناس في الإسلام.

وهذا زيد بن عمر بن نفيل الذي استدل لقومه استدلالاً عقلياً باهراً سبق به كل أقرانه وأصحابه ومن حوله ممن عميت بصيرتهم أو اتبعوا من سبقوهم واضعين عقولهم في صناديق مغلقة ربما لا يملكون هم أنفسهم مفاتيحها..

فيقول لهم:

الشاة خلقها الله ،وأنزل لها من السماء ماءً، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحوها على غير اسم الله تعالى...!!

هكذا يستدل بسهولة تبهرك كما بهرتك من قبل سهولة ذلك الرجل عابد الصنم..

ومثل هذه الأمثلة تبين أن جزءاً من معنى عبارة: (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام) يعني في العقل والحكمة وذكاء النفس.

وبرغم أنك قد تجد جباراً ظالماً عنده من العقل ما عنده، ولكنه مهما وسم بالعقل والحكمة فلا يبلغ أبداً قدر ذلك الذي حمله عقله وواتته حكمته ليختار غير طريق الظلم والعدوان والبعد عن التدين كليةً..

ولذا تجد أهل الفسوق والمعاصي الواقعين فيها ليل نهار وكأنهم قد ذهبت عقولهم فلا يدركون، ومن أكثر الأمثلة على ذلك وضوحاً وفجاجةً قوم لوط، فهاهم في سكرتهم يعمهون كما عبر بذلك القرآن، والتعبير القرآني يبين غياب العقل وتغطيته بما يشبه الخمر وما هو إلا خمر المعصية، وبريق الشهوة الزائف.

وها هو لوط عليه السلام يناشد فيهم صوت العقل والحكمة بعد أن أيس من أن يجيبه صوت الإيمان والدين فقال:

{أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ}.. والرشد هو العقل.

ولنا أن نتخيل موقف لوط عليه السلام وهم يراودونه عن أضيافه من الملائكة، وأي عتوٍ وعمهٍ قد أصاب هؤلاء فغابت عقولهم أمام فتنتهم بهذا الأمر، وغاب فيهم آخر صوت خافت من أصوات العقل وهم يقولون: {وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ}.

إن العبد لا تزال به مُسكة من عقل إذ يستتر بمعصيته فإذا جهر بها فقد رفع ستر الله عنه وقد رفع من قبل ستر العقل فماذا يبقى بعد ذلك لهذا الإنسان من شيء يتشبث به ويتذرع إذا فعل ذلك..؟

ولذا فلا عجب أن تقوم الساعة على أمثال هؤلاء الذين يتهارجون تهارج الحمر (والحمر أعقل من ذلك مقارنة بهم).

ونجد أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فيها بيان لهذا الارتباط الذي نتحدث عنه بين العقل والتدين فنجد بعضاً من المؤمنين يرفع عن نفسه هذا الغطاء.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن" فيرفع عن نفسه إيمانه العاصم مؤقتاً حتى تنتهي شهوته فما يجد بعدها مباشرة إلا الألم، والذي يختار أن يرفع عنه وصف

الإيمان ليس بعاقل العقل الأوفى.. فالإيمان إذا رفع رفع معه العقل غالباً، والإيمان إذا بقي بقي معه العقل، وما أحس بالألم بعد المعصية إلا لأنه قد رجع له عقله فأبصر ما فعل بنفسه وما فعل بإيمانه..

وإذا زالت السكرة جاءت الفكرة.

وقد قال بعض السلف: (أنا لا أحسن أعصي الله) وما هذا إلا لوفور عقله وقوة قلبه الذي صار كالحارس لصرح إيمانه الراسخ الضخم، ولاعتياده ذلك في حياته حتى إنه لا تستقيم له معصية، فالنفس السوية تأنف الدنايا وتترفع عنها وترى الولوغ فيها نزولاً لا يليق.

والنفس السوية: إيمان سليم، وعقل سليم

ومن هنا يمكننا فهم صحة العبارة الشهيرة القائلة: لا يتعارض النقل الصحيح مع العقل الصريح.

ويمكننا أيضاً التأكد من بطلان القول الشهير عند الأشاعرة: إذا تعارض النقل مع العقل قدم العقل ووجب تأويل النقل.

فيا عجباً كيف يتهمون الثابت ويثقون في المتغير..

والعقل نفسه ينكر هذه القاعدة التي قرروها ووضعوا لها الحواجز كي تستقر وترسخ فلأي عقل سيحتكمون، وبأي عقل سيؤولون..؟! وأخس البشر من لا يدرك قيمة العقل وكونه نعمة ربانية تستأهل الشكر دوماً، ولابد من إحسان استخدامها.. وأخس منه من يسعى لإهدارها أو تغييبها مطلقاً.

وما أشد حمق من يغيِّب عقله بيده أمام المشكلات والمصاعب فيهرب من الشيء الوحيد الباقي له، بل يهرب من الوسيلة الوحيدة التي بها يتوصل للنجاة..

وعلى العكس من ذلك تجد الكُمَّل من العقلاء والأسوياء والعارفين بربهم لا يريدون أن يغفلوا عنه ساعة من نهار..

وهذا ما فعله عروة بن الزبير رحمه الله لما وقعت الأكلة في رجله وقيل له: خذ دواءً يذهب العقل حتى نقطع رجلك فأبى ذلك محتجاً بأنه كيف له أن يغيب عقله عن ربه ساعة، وصبر حتى قطعت رجله دون مخدر..!

وقد يبدو هذا منافياً للعقل، ولكن نقول إنه بالتدين يعود النفع مرة أخرى على الإنسان في عقله وجسمه وتوفيق الله له وتعليمه إياه وترقيته في مراتب المؤمنين والصديقين والصابرين فتبدو هذه الكرامة منافية للعقل وهي ما كانت إلا لأن هذا العقل يقظ متقد لا يريد أن ينطفئ من نور ربه لحظة من اللحظات

وبالاستقامات تظهر الكرامات..

وكذلك إصابة الحق، واستبانة السبيل نور من الله سبحانه...

يول الله في ذلك:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}

وتوفيق العبد لهذا الفرقان زيادة في عقل العبد وحكمته وهو مؤدى المعادلة المتبادلة بين العقل والتدين فيرزقه الله حكمة يرى بها الأمور رؤية واضحة فيفرق بين الحق والباطل..

والكيِّس الحقيقي من دان نفسه وعمل لما بعد الموت كما ورد في مأثورات السلف.

وهذا من أساليب الحصر فلا يسمى كيساً من كان ذكياً مبدعاً في الانحراف عن الدين وإن أتى بالعجائب والطرائف فلا كيس فطن عاقل إلا الذي يعلم تقصيره في جنب الله ويعمل للباقي الذي لا يزول ولا يتحول، والناس في الدنيا تمدح بعيد النظر الذي ينظر لمآلات الأمور فما بالهم غفلوا عن المآل الأخير الذي لا مراء فيه ولا جدال..

وكم رأينا من أناس كانت عقولهم وملكاتهم دون المستوى ولكن لما فتح الله عليهم من أبواب الإيمان رأينا استقامة فهمهم وعلو ملكاتهم وبزوغ ذكائهم

{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ }

ولذا كانت أمة الإسلام على مر تاريخها حافلة بعشرات الآلاف، وإن شئت قل ملايين الأفذاذ من أهل الحفظ والديانة ممن شهد لهم القاصي والداني من أهل الإسلام وغيرهم باتقاد الذكاء و وفور العقل، وما ذلك إلا لفطرتهم السليمة وعقولهم المستقيمة التي باركها الله عز وجل وزادها حكمة واستقامة وذكاءً..

{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}

فالمحسنون هم الذين يرزقهم الله العلم والحكمة، وما الحكمة إلا منتهى العقل، وكل الثقافات حينما تريد أن تصل إلى أفضل الأوصاف لرجالها الأذكياء العقلاء تطلق عليهم لفظ (حكيم)، وفي الريف ومنذ ماض قريب كانوا يطلقون على الطبيب الذي هو عندهم يعلم ما في باطن الإنسان لفظ حكيم، فالحكمة وفور العقل و وفور العلم..

ولذلك عُدَّ من الأمراض أن يتوه عقل الإنسان فلا يعود يدرك ما حوله ومن حوله وتضيع معلوماته ويرجع كالطفل الذي لا يدري شيئاً فيفقد نعمة العقل..

{وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا}

فاللهم بارك لنا في عقولنا..

واجعلنا من العقلاء الذين آثروا الآتي على الذاهب والحق على الباطل والباقي على الزائل..

الصدمة الأولى

فصَبْرًا عَلَى الأَوْقَاتِ حَتَّى تَحُوزَهَا

فعمَّا قَلِيْل بَعْدَهَا يَنْفَعُ الصَّبْرُ.

.....

اصبر على مضض الإدلاج في السحر

وفي الرواح وفي الطاعات في البُكر

إني رأيت وفي الأيام تجربة

للصبر عاقبة محمودة الأثر

وقل من جد في أمر يؤمِّله

واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر.

(علي بن أبي طالب) رضي اللّه عنه

لطالما تخيلت نفسي مكان هذه المرأة التي وجدها النبي صلى الله عليه وسلم يوما عند المقابر تبكي علي صبي لها فقال:

"اتقي الله واصبري" فقالت: وما تبالي بمصيبتي. فلما ذهب قيل لها إنه رسول الله فأخذها مثل الموت. فأتت بابه فلم تجد علي بابه بوابين. فقالت: يا رسول الله لم أعرفك. فقال: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى".

تخيلت إنني مكان هذه المرآة وساءلت نفسي:

ماذا لو قيل لي مثل ما قيل لها بم كنت سأجيب؟

إن الصدق عزيز، والإنسان لا يحب أن يظهر نفسه كاذباً أبداً.

وربما لم أكن لأبعد عما قالته كثيراً...!!

إن المرء قد يقرأ الآية أو الحديث ويستحضر معانيها ويشعر بما ينبغي عليه تجاه ما فيها من أوامر أو نواهٍ أو ندب أو نحو ذلك..

لكنه حين يمر بالاختبار، ويتعرض للموقف العملي، قد يجد نفسه نسى أو غفل أو رجع إلى جاهليته القديمة، ويبعد عن الهدى

الصحيح الذي كان يقول لنفسه عنه إنه لو تعرض لمثل هذا الموقف لاهتدى بالهدى وسار على الدرب.

وأكثر ما يتضح فيه هذا الأمر مثل هذه المواقف التي تحتاج إلى الصبر..

ذلك لأن الصبر عبادة تختلف عن سائر العبادات، وأمر يختلف عن غيره من الأمور.. إنه لأثقل شيء على الإنسان حتى إن بعض الأنبياء لم يصبر على ما أمر به، فلا عجب أن يزل فيه البشر العاديون.

وهذه امرأة والبشر ضعاف أمام المصائب، وما جبلوا على الصبر، بل كان الإنسان عجولا والنساء أعجل وأضعف وأقرب إلى الزلل والتهاون.

وما كانت تبكى زوجاً ولا أخاً ولا أباً ولكن تبكى صبياً لها، وهذا أشق شيء على المرأة أن تثكل ولدها بالموت فينزع منها، وكأن قلبها وثمرة فؤادها تنزع منها، فلا عجب أن تجدها هناك عند المقابر تزوره وتبكيه وتذرف الدمع مدرارا عليه.

والظاهر أنها كانت تبدو منها أفعال تضاد الصبر لأن البكاء وحده على الميت جائز، وقد بكى النبي صلى الله عليه وسلم ابنه إبراهيم. وما يصبر على فقد الولد إلا من وفقه الله عز وجل وثبته وغرس الإيمان في قلبه ولذلك فالله عز وجل يجزيه أفضل الجزاء، كما في الحديث عن الرجل الذي قبض الملائكةُ رُوح ولده فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم بهم:

قبضتم روح ولده؟ أخذتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون نعم. فيقول الله: وماذا قال عبدي فبقولون: حمدك واسترجع. فيقول لهم: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد..

ولذلك أيضا أعظم الله عز وجل جزاء الصبر بما ليس في غيره من العبادات فقال سبحانه: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر ١٠]

قال بعض أهل التفسير: يُغرف لهم غرفاً.

يعنى أن كل عمل من الأعمال قد حدد له الشرع في الغالب مقداراً من الأجر، أما الصبر فأجره بلا حساب.

والنبي صلى الله عليه وسلم الشفيق بأمته، الرءوف الرحيم بهم، الناصح لهم، لم يترك المرأة لتبكي وتفعل ما تفعل بل نصح لها ونهاها ودلها علي ما فيه الخير بأن تصبر، بل وأمرها به وفي هذا دليل علي وجوب الصبر علي كل مسلم، وألا يتسخط علي أقدار الله عز وجل ويرد قضاءه، ولو مع كرهه لهذا القضاء، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ بالله من سوء القضاء. فهناك قضاء سيئ مكروه وهناك قضاء حسن محبوب ونقول ولو مع كرهه لهذا القضاء فقد يجتمع الصبر علي المصيبة والبغض لها.

أما الرضا فهي مرتبة أعلي وهي مستحبة، وقد بكي النبي صلى الله عليه وسلم ابنه إبراهيم وقال: "إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ولا نقول إلا ما يرضي ربنا".

فدل هذا الحديث علي أن هذا الأمر غير محبوب للنبي صلى الله عليه وسلم.

وبرغم ما يعلمه كل مسلم مما سبق فإن الحديث عن الصبر حديث ثقيل على النفس ذلك أن النفس جبلت على ضده. فمعنى الصبر الحبس ومن الذي يستطيع أو يريد أن يحبس نفسه؟

مَن مِن الناس يحب أن يعيش مقيداً مكبلاً بغير حراك؟

لا أحد يحب ذلك.

وما نريد أن نبثه هنا: كيف أستطيع أنا العبد الضعيف العجول أن أصبر؟

لمعرفة الجواب فإن كل إنسان لا بد أن يفتش في نفسه، وينقب فيها، ويتعلم أحوالها، ويسبر غورها فإنه في دهاليز النفس ما قد لا يعلمه صاحبها، ويظل يعيش السنين الطوال وهو يظن عن نفسه شيئاً أو خلقاً معيناً، فإذا تعرض لموقف أو طرقه عارض وجد هذه النفس التي ألفها وعلمها وخبرها – في زعمه – قد خرجت عليه بالعجب العجاب الذي ما كان يظن في يوم من الأيام أن يصدر عنه.

إذاً فأول مفتاح لولوج جنة هذه العبادة الجليلة عبادة الصبر؛ هو أن تعرف نفسك التي بين جنبيك ماذا تحب وماذا تكره؟

ما تشتهي وما تبغض؟

ما همتها وما مبتغاها وغايتها؟

إذا خلت بك بم تأمرك وعلي أي شيء تحثك ؟

هل تأمرك بالخير والحسنات، أم تأمرك بالشر والسيئات؟

وإذا كانت تأمرك بالشر والسيئات، فهل وقفت معها لتكفها أم استرسلت بك في الغواية فوقعت بك في المحذور؟

ثم إذا كنت وقعت في هذا المحذور أو ذاك فهل انصدع قلبك من بعده خوفا من الله أو حتى خوفا من الناس؟

إن الإجابة علي هذه الأسئلة بصدق هي الخطوة الأولي لكي يعيش الإنسان في هذه الدنيا كما ينبغي أن يكون..

ثم ليعلم المرء – بعد أن يفتح مغاليق و مجاهل هذه النفس العميقة – أنه لا شيء يخفي على الله عز وجل، بل – وهذا هو الأقرب عذاباً في الدنيا – لا شيء يخفي على الناس من أخلاق النفس

وقد مدح عثمان رضي الله عنه قول زهير إذ يقول:

ومهما تكن عند امرئ من خليقةٍ

وإن خالها تخفي علي الناس تُعلَمِ

فتخيل غير الصابر هذا وقد اطلع الناس علي أخص وأدق ما لا يريد أن يعلمه أحد؛ كيف يعيش؟

وكيف تطيب له حياة؟

وعلى هذا فالصبر أولى له وأنجع. وهذا يقودنا لماهيَّة الصبر.

إن الصبر في ذاته علاج. والله عز وجل من كرمه ومنه ونعمته وتفضله على عباده جعله كذلك ومن يتصبر يصبره الله..

"فاصبر وما صبرك إلا بالله"

فالعبد لا بد أولا أن يختار طريق الصبر، ثم الله عز وجل يصبّره ويعينه ويوفقه ويسدده ويهون عليه.

ومعنى أن الصبر علاج أن يتعاطاه العبد مخلصاً موقناً أن تفريج همه وجلاء كربته وكشف مصيبته فيه..

كمن يتعاطى الدواء وهو يعلم أن شفاءه فيه..

وليعلم أن الهم منفرج والكربة مفرجة والمصيبة مكشوفة ما دام قائما على صبره ماضيا فيه وما زال في خفارة الصبر حتى يكافئه الله عز وجل أتم المكافئة فيعوضه خيراً مما فاته.

وهذه المعاني مخالفة أشد الخلف لما عليه واقع الناس واعتقاداتهم ومعهودهم، إذ إن كثيرا من الناس حين تبهته المصيبة يضطرب ويذهل ويعلو صوته ويتسخط ويسب ويتقلب ويتلدد، ثم بعد أن يهدأ يقول: الحمد لله هذا قضاء الله...!!

فيذكر ويقف بعد أن يرسب في الامتحان ولا يواجه الصدمة الأولى بما ينبغي أن تواجه به كما سبق وبيناه في كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم هو بعد ذلك يضمر في نفسه أن يصبر وقتاً محدوداً معيناً وقّته هو في نفسه وواتاه به عقله وهداه إليه شيطانه، فإذا مر هذا الوقت رجع كما كان وربما أشد. وهذا هو عين ما حذّر منه النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك أمر صلى الله عليه وسلم بالصبر عند

أول الصدمة فإذا وفق العبد للثبات أمام القوة العاتية لهجمة الصدمة الأولى كان ما بعدها أهون منها بإذن الله.

ومن فضل الله عز وجل وكرمه ومنّه أيضا أنه لا يزيد في بلاء العبد إلا ويزيد في صبره. وما أصدق هذه المقالة:

(إن الصبر ينزل علي قدر البلاء)..

التي ما أظنها جربت إلا وصحت وصدقت. وما كنت أظن – أنا الشكاك المرتاب الذي يحب أن يعاين ويشاهد – أن يصح ذلك دوماً أو يطرد اطراداً حتى حكي لي أحد إخواني قصته وتعذيبه هو وصاحبٌ له حيث قال إنه كان بعد أن يصل به العذاب مداه ويظن أنه لا احتمال بعد ذلك ولا صبر؛ يجد نفسه قد هدأت وأحس بمدد من الله عز وجل، وكلما فكر بعد ذلك وقال في نفسه: كيف تحملت كل هذا وصبرت عليه؟ لا يجد جواباً إلا أن الله عز وجل صبره ولولا ذلك ما صبر.

وحكي لي كذلك إنه من تمام هذه القاعدة ومن تمام نعمة الله عز وجل عليه أنه بعد أوقات الضنك الشديد هذه كان ينصرف أحيانا

هو وصاحبه وفجأة يأخذان في الضحك يضحكان عاليا ،ولا يستطيعان لذلك دفعاً.. وحين يسأل أحدهما الأخر ما أضحكك يقول: لا أدري.

ثم إن هناك أمرا خطيرا، بل هو أخطر الأمور وأروعها، وما ذلك إلا لالتصاقه بالقلب الذي هو ملك الأعضاء وحاكم البدن.

أمر هو القالب الذي يدور مفتاح الصبر فيه ويؤتي ثمرته ألا وهو الإخلاص في الصبر.

والصبر عبادة قلبية والعبادات القلبية هي أخطر أنواع العبادات وأعلاها وأفضلها.

قد يبدي الإنسان الصبر في شكله وهيئته، ويكون بين الناس كالجبل الأشم ثباتاً وإيماناً ولكن في قرارة نفسه وحشاشة أعماقه ليس صابراً ولا محتسباً..

أو أنه يلبس لباس الصبر والحلم ويقول بلسانه:

(قضاء الله ولابد أن نرضي)

ولكنه في دخيلة نفسه يشعر أن ما وقع به من سلب نعمة أو فقد حبيب ما كان ينبغي أن يقع له هو بالذات وإن سرى علي الناس وقوعه وثبت فيهم قانون وجوده؛ فمثل ذلك إنما هو الشيء الأخطر فمن سلم لربه أعانه ربه ومولاه.

أقول...

لطالما تخيلت نفسي مكان هذه المرأة التي لم تصبر أمام فجأة الصدمة، وتنتابني الخواطر والنوازع، وأري من تقلب هذه النفس الموارة بالغرائب والعجائب الشيء الكثير.

وأسائل نفسي...

ماذا كنت سأقول..

فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا علي دينك.

الحمل فوق الرأس

خذيني إذا عدت يوما وشاحا لهدبك.

وغطي عظامي بعشب تعمد من طهر كعبك.

وشدي وثاقي بخصلة شعر بخيط يلوِّح في ذيل ثوبك .....

(**محمود درويش**)

أبي.....

طَوى بَعضَ نَفسي إِذ طَواكَ الثَرى عَنّي

وَذا بَعضُها الثاني يَفيضُ بِهِ جَفني.....

(**إيليا أبو ماضي**)

ربما كان هذا هو العمل الذي ترجو به النجاة في الآخرة..

العمل المفقود فى مثل هذه الأزمنة..

العمل الشاق، بل شديد المشقة.. والذي هو مع ذلك..

شديد اللذة..

العمل الذي لا تسأل نفسك بعده: هل أحسست بالتعب..؟

العمل الذي تبذل فيه جسدك ومالك ووقتك وكل شيء لك في هذه الدنيا ولا يداخلك مثقال ذرة من ندم على ما بذلت..

.....

إنه....

(بر الوالدين)..

يالها من كلمة كبيرة وعظيمة: البر..

هل ما تقوم به هو البر حقاً.. هل هذه الكلمات أو الخدمات الصغيرة تستأهل أن تسمى بهذا المسمى العظيم.. أم أنه اصطلاح شائع آخر رسخت صورة له ممسوخة باهتة في الأذهان، وفقد مدلوله وجوهره الحقيقي..؟

إن هذا العمل يختلف عن أي عمل من أعمال البر الأخرى، ولا يدانيه عمل آخر أو يشابهه وهو العمل الذي التصقت به كلمة البر حتى صارت من علاماته، ولا يفهم الكلام إلا بالتصاقها به.

وكذلك يوحي هذا التلازم بصعوبة تطبيق هذا الأمر، لأن تلازمهما يفرض حسن العمل، وأشق شيء على العبد تحسين العمل وتجويده لا كثرته.

غالب الناس من بني آدم جربوا الاصطلاء بهذه النار الهادئة، واللاذعة في ذات الوقت: نار محاولة إرضاء الوالدين، أو احتواء غضبهما، أو إقناعهما بمراد أو مطلوب مع شدة الحذر من الوقوع معهم فيما يثيرهم أو يعكر صفوهم، ناهيك عن محاولة إرضاء الوالدة وإحكام العلاقة بينها وبين الزوجة في كثير من الأوقات..

حاول الكثيرون أن يضعوا (المعادلة) في نصابها الصحيح، ومنهم الرياضيون المهرة، والفيزيائيون العباقرة..

ولكن كم منهم أفلح في أن يزن (المعادلة) ويخرج بحل مثالي كالحلول الرياضية التي تحدث في القلب راحة بعد الوصول إليها..

كم من العباد علم قدر الوالدين الحقيقي فأنهضه ذلك، وشحذ عزمه، وأذكى قلبه ليحاول – ومجرد المحاولة محمود – أن يتحمل ولو قدراً قليلاً جداً من هذه البحار الهائلة التي غمرنا بها الوالدان حناناً وحباً وشفقةً ورعاية..

من هذا القادم من بعيد..؟

رجل أضناه السفر.. يسير في خفاء وخمول مع الناس.. الناظر إليه يقتحمه ثم يمر عليه ولا يأبه له، ولكن هذا الناظر سيصيبه الدهش والانبهار إذا علم أن النبي ذكره في أحاديثه وأثنى عليه خيراً، بل وأمر من استطاع أن يستغفر له أن يفعل، فأي مكرمة نالها هذا السائر وبأي شيء نالها...؟

قد يصعب في أحيان كثيرة أن تحدد السبب الأساس في حوز مثل هذه المكرمات، والقارئ لسير السلف يجد من ذلك الكثير..

وأيضاً في الغالب يكون أحدهم لا يدرى منزلته الحقيقية بين الناس، وإذا دراها فإنه يحاول الفرار دوماً حتى يعيا ويعيى الناس من خلفه..

وقد يبحث الباحثون ولا يظفرون بشيء، أو يظفرون بعد طول عناء..

ولكن هذا أمر شرعي من النبي بالتعرض لاستغفار هذا الرجل..

عن أسير بن جابر قال كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر. حتى أتى علي أويس فقال: أنت أويس بن عامر قال: نعم قال: من مُراد ثم من قَرَن قال: نعم قال فكان بك برصٌ فبرأت منه إلا موضع درهم قال: نعم. قال: لك والدة قال: نعم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برصٌ فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها برٌّ لو أقسم على الله لأبره قال فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل" فاستغفر لي فاستغفر له فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إلي.

إننا إذا قرأنا هذا الحديث قراءة متأنية لنحاول استخلاص هذا السبب الذى به نال أويس هذه المنزلة العالية؛ لا نجد إلا سرداً

لبعض حياة الرجل ولا نجد من ذكر لصالح عمله إلا هذه العبارة الصغيرة (له والدة هو بها برٌّ) وكأن هذا العمل هو سبب كل هذا العجب:

الشفاء من البرص

وأنه لو أقسم على الله لأبره

وأن الناس تحتاج لدعائه واستغفاره لهم.

ما هذا..؟

هل بر الوالدين يورث كل هذا الخير..؟

إذن فهو من أشق الأعمال على النفوس ولابد فما عظم الأجر إلا لثقل العمل ويحتاج لجبال من الصبر فوق أرض من الصبر..

ولكن من مساعِدات البر ومهونات هذا العمل الضخم تمثل الأجور العظيمة التي ينالها البار بوالديه والكل يعلم ذلك والوحي ملآن بالترغيب في البر والترهيب من العقوق، وأيضاً من المساعِدات والمهونات تمثل صبرهم وتفانيهم من أجلك حتى قال القائل لو أن

إنساناً حمل أباه أو أمه في كبرهما علي رأسه بقية عمره ما وفّاهم حقهم وفضلهم، وما أدى لهم إلا كفلاً قليلاً مما أدوه إليه..

وقد صدق عمر رضي الله عنه لما أتاه آت فقال:

إن لي أماً بلغ بها الكبر، وإنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري مطية لها، وأوضئها، وأصرف وجهي عنها، فهل أديت حقها؟ قال: لا.

قال: أليس قد حملتها على ظهري، وحبست نفسي عليها؟ قال: إنها كانت تصنع ذلك بك، وهي تتمنى بقاءك، وأنت تتمنى فراقها.

وقال رجل لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: حملت أمي على رقبتي من خراسان حتى قضيت بها المناسك، أتراني جزيتها؟ قال: لا، ولا طلقة من طلقاتها.

ونفهم هذا حين نعلم أن محبة الوالدين لأبنائهم محبة فطرية طبعية جبلية يجدان النفس مدفوعة لمحبة الولد دون سابق تفكير أو ترتيب، وهذا من رحمة الله بهما وبالولد.

أما محبة الولد لوالديه ففيها من الجبلة شيء وقد تنمو بتنمية العبد لها، ولكنها تظل اختياراً يقاوم فيه نفسه التي تريد أن تحمله

علي الراحة والاستسلام لمكنوناتها، وإلقاء هذا الحمل الذي تثقل به كتفاه..

وأظن أن العبد يظل في غفلة عن إدراك كنه بر الوالدين وفهمه الفهم الحق حتى ينجب هو الولد ويذوق هذا الشيء الجديد الذي ما كان يعرفه من قبل، ومع نمو أولاده يوماً بعد يوم وإحساسه بهمهم وصعوبة تربيتهم والتعامل معهم يدرك أخيراً ويكتشف – إن كان فيه خير – أي أحمق كانه من قبل حين رد على أبيه قوله، وحين لوح بيده في وجه أمه، وحين رفع صوته عليهما حتى سمعه الجار البعيد وهو بعد لم يجاوز الخامسة عشرة وقت أن كان يظن أنه قد بلغ ذروة الرجولة ومنتهى الكمال..!!

سيعلم حين ينظر في وجوه أولاده وهم نيام في براءة تجعل ذوي القلوب الرقيقة توجل وترتجف شفقة؛ أي جلف كان حين نهرهما وزعق في وجهيهما مجرباً وصفة من صاحب خائب نصحه مخلصاً ألا يترك لوالديه الحبل مرخياً حتى تشعر بحريتك وكيانك..!!

تذكرت قصة حكاها لي أبى يوماً منذ سنين ولكني لم أفهمها وأدرك مغزاها إلا بعد أن رزقت الولد:

كان الفلاحون في حقول القمح والرجل الشاب يعمل، والجد والحفيد تحت ظل شجرة على حافة الحقل ولكن الحفيد نائم في فرشته في سلام، والجو أيام القمح يكون في أشد الحر، والرجل الشاب متخفف من ملابسه ولا يلبس علي جذعه إلا قميصاً خفيفاً واسع الطوق، وفي غمار العمل يرتخي الطوق فيكشف عن كتفه فتلسعه حرارة الشمس اللاهبة ولا ينتبه هو لذلك، ويري (الجد/الأب) ذلك المشهد من بعيد فينادي ابنه أن يرفع قميصه ليتقى الحر فيجيب الشاب تارة ويهمل النداء تارات..

فما كان من (الجد/الأب) إلا أن كشف فرشة الحفيد شيئاً وانحسر الغطاء عن قدمه وبانت للشمس فلما نظر الأب الشاب لولده النائم وجد قدمه تعرضت للشمس فنادى أباه مناشداً أن يغطي قدم ولده لأن حر الشمس شديد فيبتسم الجد ويغطيها ويخاطب ولده في حنان قائلا: يا بني ألم أكن أناديك من قبل....!!

هَوْنُ المحبة

أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما

وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما ....

(علي بن أبي طالب) رضي الله عنه

أزعم أنى قد خبرت طباع البشر، ومشاعرهم بشئ من العمق، وقد يستطيع كل أحد أن يزعم ذلك، ولكن لا أحد يستطيع أن يزعم أنه قد أحاط بها علما، فضلاً عن أن يتعامل معها التعامل الصحيح.

ذلك أن النفس البشرية شديدة العمق، بعيدة الغور، كلما ظننت أنك قد كشفت عن مكنوناتها واستخرجت خبأها؛ انقلبت عليك، وأرتك من الطباع، والأخلاق، وأظهرت لك من المشاعر ما يفجؤك، فيبهتك ويسوءك، أو يطربك ويسرك.

وقد يتعامل إنسان مع آخر فى أمر ما وتتشابك علاقاتهم وأمورهم وأحوالهم، بل و.. أموالهم، وهو فى كل موقف أو حديث يظن أنه قد ألمّ بحال صاحبه وخلقه، وصفاته، وما يخرج منه، وما يؤثر فيه، وما يستعمله من أساليب، مع طول ملازمة، ومعاشرة ثم فى موقف من المواقف، أو لفتة من اللفتات، أو حديث، أو كلمة عابرة؛ يدرك أنه لم يكن يعرف صاحبه – كما ظن قبل – حق المعرفة، بل ربما لم يكن يعرفه البتة!!

وصدق الشاعر الذى قال:

وما سُمّى الإنسان إلا لنسْيِهِ وما القلب إلا أنه يتقلبُ

وقد ورد فى الأثر:

إن النفس أشد تقلباً من القِدْر إذا استجمعت غلياناً.

وأشد مايجد الإنسان من ذلك من قرابته، فهم يتعايشون سوياً الزمن الطويل، ويظن أحدهم أن صاحبه لن يخذله، أو يخرج له مكنوناً من الأخلاق يحذره، ويظل يُسكتُ هاجسَ نفسه: أن صاحبه لن يخرج له هذا الخلق المحذور، وهذه الخلة المخوفة، حتى إذا نسى ذلك، وسكت الهاجس؛ خرج الخلق المحذور فى أفحش صورة، وأقبحها، فيكون ذلك أشد على النفس من حزة السكين أو طعنة السيف،

وظلمُ ذوى القربى أشدُ مضاضةً

على النفس من وقْعِ الحُسام المهنَّدِ

وذلك أن شدة القرب (أياً كان القرب وليس الأمر مقتصراً على قرابة النسب) تحمل الإنسان على تغير الأخلاق بصور متعددة تأثراً وتأثيراً، ولكن مانقصده هنا أن كثرة الاختلاط والمباشرة تبدى ما كان مخفياً فى النفوس.

والمرء قد يتزين لصاحبه يوماً وأياماً، أو شهراً وشهرين، وسنة وسنتين، أما إذا قاربه، وصاحبه كالصديق لصديقه، والزوج لزوجه، والأخ لأخيه، فإنه يصعب مع طول المدة ألا يظهر خلقه الحقيقى، مع ما جبل عليه الناس الآن من لبس الأقنعة الخادعة التى يزيفون بها حقائق دواخلهم. وشيئاً فشيئاً لا يتحمل استدامة القناع الجميل فوق وجهه المثقل وسرعان ما يذوب القناع ليكشف عن الوجه الحقيقى، وغالب الناس يكون على هذه الصورة إلا من رحم الله.

وأفذاذ البشر وصالحيهم من إذا عاشرته وجدته خيراً مما ظننت، ولعمرى إنهم لقلة من قليل، ولعلك قد سمعت أو قرأت قصة ابنة سعيد بن المسيب إذ روى أنه زوجها أحد تلامذته الفقراء، حيث قال التلميذ فى كلامه عنها: (فإذا هى من أجمل الناس، وأحفظهم لكتاب الله، وأعرفهم بحق زوج..) فكانت خيراً مما كان يظن.

نعود فنقول إن القرب يظهر ما كان مخفياً بالبعد، وأظن أن قيساً لو تزوج ليلى لانكسر شوقه، ولخفُتَ وجْدُهُ، ولكنها لبعدها، وبينها،

كانت فى قلبه كالمثال، إن كان علم منها خلقاً، أو حادثها شيئاً، أو سرق منها نظرات؛ فقد أضاف خياله عليها شكلاً يكاد يصل لحد الأسطورة أو المثال المطلق الكامل للبشر، حتى إنه كان ليغشى عليه إذ يسمع منادياً ينادى فى الطريق: (يا ليلى) كما ذكرت ذلك كتب الأدب.

والعبد الصالح يظل مشتاقاً لربه سبحانه – ولله المثل الأعلى – حتى بعد دخوله الجنة لأنه لا إحاطة به سبحانه ولا إدراك إلا بقدر الرؤية والنظر كما ثبت أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفى الجنة، وبهذا كانت هذه النظرة لوجه الرب سبحانه هى أعلى النعيم، وشفاء السقيم، ومنهل الظامئين من المؤمنين.

وبهذا كانت محبة الله عز وجل، ومحبة رسوله، هى أعلى المحبات، وأرفعها ولا تدانيها محبة أخرى من المحبات. ولم يكشف الله عز وجل عن تمام صفاته، وعن ذاته للناس لاستحالة ذلك على هؤلاء البشر الضعاف، فالأمر فوق العقل والقدرة، فأظهر لهم – فقط – ما تناسبه قدراتهم حفظاً لهم وصيانة، والعبد إذا زاد فى شئ إلى حد

الإفراط والغلو المذموم، انقلب الحال فى كثير من الأحيان إلى ضده، ألا ترى الإنسان إذا زادت فرحته بكى...!!

وقد حكم أهل السنة بالزندقة على من قال من أهل الأهواء إنا (نعشق) الله، ونحبه حباً ذاتياُ حتى قال قائلهم:

إن كنت أعبدك خوفاً من نارك فأدخلنى فيها، وإن كنت أعبدك طمعاً فى جنتك فأخرجنى منها...!

فلم ينضبطوا بالاعتدال بل أفرطوا، ففرطوا. والعبد المؤمن يحب الله مع الخوف، والرجاء مختاراً عاقلاً.

وأما على مستوى البشر فالعرب تقول: (زُرْ غِبَّاً تزددْ حباً).

يعنى لا تزر أصحابك، وأحبابك، ومعارفك كثيراً فيملوك، ويزهدوا فى محبتك بل باعد بين زياراتك ليشتاقوا إليك. وهذه من أحكم النصائح لأن الإفراط مذموم ولو كان فى المحبة، وهو مذموم فى البغض أيضاً استمع لقول النمر بن تولب:

وأبغض بغيضك بغضاً رويداً إذا أنت حاولت أن تحْكُما

أى إذا أردت أن تكون حكيماً عاقلاً.

وأفضل ما يمدح به العباد العقل. وأعقلُ الناس، وأحزَمُهم من تأتمر مشاعره بأمره، ولا تنبو عن حَكْمِهِ وقيده. وأصل العقل الربط والإمساك. مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه. ويقال: اعتقل لسانه إذا امتَسَك. وعقَله عن حاجته، وتعقّله، واعتقله، أى: حبسه. والذى يرى أحوال الناس اليوم على ماهم عليه من البعد عن التدين والتخلق بأخلاق الإسلام فى الجملة؛ يرى بعدهم عن العقل، والحكمة، فتجد البعض إذا أبغض، أفرط حتى لايجد لمن يبغضه حسنة واحدة، وإذا أحب غالى حتى ما يتحمل عن محبوبة كلمة من ثلب أو نقد.

ولقد راعنى وآلمنى أن وجدت بعض إخوانى يتباغضون، ويتتاركون بعد أن كان الواحد منهم لا يتحمل مفارقة إخوانه، مستعداً لبذل النفس والمال والولد والوقت من أجل أخيه فكيف انقلب الحال لضده، وكيف صار المحبوب مبغوضاً فى طرفة عين،وأى شئ قد يجعل الإنسان يتحول مثل هذا التحول..؟!

لقد ذكر أهل العلم علامات المحبة، وأخلاق الأخوة، وما ينبغى أن تكون عليه، وأفاضوا فى ذلك، وذكروا قصص السلف، وأخلاقهم، ومعاملاتهم..

ولكن... أين نحن من السلف..؟

أين نحن من أخلاقهم وفعالهم..؟

(ولا أقول ذلك تيئيساً وتخذيلاً ولكن ضبطاً للمسار)

إذا كان العبد يريد أن يتخلق بآداب السلف، وأخلاقهم فليعلم أن الأمر ليس كاللباس يلبسه الإنسان فيتغير شكله سريعاً، ولكن لابد أن يتدرج فى ذلك، ويضع منها فى قلبه شيئاً بعد شئ، خلقا بعد خلق، ويديم ذلك الخلق، ويعالجه، ويروض نفسه عليه، وهكذا حتى يستوثق من نفسه، ويتثبت من خُلقه، وعلى مثل ذلك سار السلف، ويسير العقلاء، حتى لا يفاجئ صاحبه أو يفاجئ نفسه التى بين جنبيه بتصرف أو سلوك عجيب عليه، غريب عنه..!

وتالله ما أحكم النبى صلى الله عليه وسلم إذ دلنا على ذلك بأبى هو وأمى، فقد ورد عن بريدة رضى الله عنه قال: خرجت ذات يوم

أمشي في حاجة فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي فظننته يريد حاجة فجعلت أكف عنه فلم أزل أفعل ذلك حتى رآني فأشار إلي فأتيته فأخذ بيدي فانطلقنا نمشي جميعا فإذا أنا برجل بين أيدينا يصلي يكثر الركوع والسجود فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "ترى هذا يرائي؟ "فقلت: الله ورسوله أعلم قال: فأرسل يده وطبق بين يديه ثلاث مرار يرفع يديه ويصوبهما ويقول: "عليكم هديا قاصدا عليكم هديا قاصدا فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه".

[قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الألبانى فى ظلال الجنة: صحيح. وانظر صحيح الجامع (٤٠٨٦)]

والمقصود أنك لا تغالى، وترهق نفسك، وتتحمل من الأعمال مالا تطيق حتى لا يحملك ذلك على الترك.

واعلم أن طريق الحق يضيع بين الغلو، والجفو: الغلو فيه الإفراط والزيادة عما أمر، والجفو عنه التقصير والنقص. وأول شرك وقع كان سببه الغلو.

وهكذا المحبة. إذا أنت أحببت إنساناً وأعجبك ما عنده من أخلاق، وأحسست بحلاوة معشرة (وللنفوس أغوار فى انتقاء الأحباب، والأصحاب فقد يكون لحظ نفس من مدح أو نشوة وإعجاب، أو طمعاً فى شئ، أو خوفاً من شئ) فإذا صفت المحبة فليحمل العاقل نفسه على صونها، وفى ظنى أن أكثر ما يصون المحبة الاقتصاد فيها، والهون منها. وقد أوردوا عن ذلك فى كتب الأدب والآداب الكثير. من ذلك ماذكره أبو على القالى فى أماليه قال:

أي بنيّ، لا تواخ أمرأً حتى تعاشره، وتتفقّد موارده ومصادره؛ فإذا استطعت العشرة، ورضيت الخبرة؛ فواخه على إقالة العثرة، والمواساة في العسرة؛ وكن كما قال المقنع الكندي:

ابل الرجال إذا أردت إخاءهم ... وتوسّمنّ فعالهم وتفقّدِ
فإذا ظفرت بذي اللّبانة والتّقى ... فبه اليدين قرير عينٍ فاشددِ
وإذا رأيت ولا محالة زلةً ... فعلى أخيك بفضل حلمك فاردِدِ

وما أحسن هذا الهدى فى معاملة الإخوان، والأصحاب.

ثم قال: أي بني، إذا أحببت فلا تفرط، وإذا أبغضت فلا تشطط؛ فإنه قد كان يقال: أحبيب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما، وكن كما قال هدبة بن الخشرم العذريّ:

وكن معقلاً للحلم واصفح عن الخنا ... فإنك راءٍ ما حييت وسامعُ

وأحبب إذا أحببت حباً مقارباً ... فإنك لا تدري متى أنت نازعُ

وأبغض إذا أبغضت بغضاً مقارباً... فإنك لا تدري متى أنت راجعُ. انتهى.

وانظر ياأخى لقولهم: أحبيب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما. (وقد صح عن علي رضي الله عنه أنه قالها) فإنها كلمة ستظل تقطر حكمة ما عاش الناس، وبقى الدهر، ولو ظل العلماء يستخرجون منها ما انقطعوا.

وهذه العبارة الحكيمة وصفة صحيحة من خبير بالبشر مجرب، خبرهم وعلم أن أخلاق الناس تضطرب، وتتقلب، ولا تثبت على حال فالخير بعد التغافر، والصفح والعفو، والحلم؛ فى الاقتصاد.

وقد ورد عن معاوية رضي الله عنه قوله: لو كان بينى وبين الناس شعرة ما قطعتها. وهذا دليل على الحكمة والتعقل الذى هو ضابط الأخلاق، وإلا... انفلتت كالجواد الجموح... لتعيث يميناً، وشمالاً لتخرج العجب العجاب.

القشة المذمومة

لا يصْدُقُ الوَصْفُ حتى يَصْدُقَ النظرُ.....

المتنبي

تخيل معي قشة وحيدة ضعيفة

نزلت علي ظهر بعير ضخم..

ما تفعل فيه...؟

ولكن إذا علمنا أن هذا البعير قد تلقى علي ظهره الضربة تلو الضربة..

والسوط تلو السوط..

بل والجرح تلو الجرح..

حتى إذا جاء دور هذه القشة الهشة نظر إليها مرتعباً إذ علم أنه لن يتحمل نزول هذا الشيء الرهيف عليه.. بل إنه كان يئن إذ يتخيل نزوله على ظهره..

فلما نزل.....

وإذا تخيلنا أن رائياً يرى البعير من بعيد فسيرى متعجباً أن هذه القشة (تلك المذمومة) كانت هي القاصمة والقاضية وذلك لأنه لم ير المشهد من البداية، وما أدرك إلا الضربة الأخيرة فقط.

لقد انهالت أقلام الكتاب قديما وحديثاً ولهجت كثيراً عائبة ومقبحة تلك القشة التي لا ذنب لها سوى موضعها غير المناسب الذي جاءت فيه إذا ساغ لنا أن نسمي هذا ذنبا.ً

كم من كاتب ذكر هذه الجملة غير المنصفة، واتهم هذه القشة البريئة بهذا الفعل الشنيع فقال:

(وكانت هي القشة التي قصمت ظهر البعير).

وقد ذكرت ذلك المثال في أول كلامي لأبين حقيقة الأمر، ولأبرئ ساحة هذا الشيء الذي يضرب به المثل في الرهافة والضعف..

ولعل هذا من نفس باب انتصار النبي صلى الله عليه وسلم لناقته (القصواء) لما نزل المدينة وأرادوا أن تبرك الناقة فأبت وسارت لسير مرسوم فقالوا:

خلأت القصواء..!

فرد عليهم النبي قولهم وأنكر أن تكون كذلك وقال:

"والله ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق"

وكذلك نقول: والله ما قصمت القشة ظهر البعير وما ذاك لها بخلق.

وحين نرجع لقصة القشة كما يحكونها نرى أنه كان من الممكن جداً أن نتلافى بشيء من الفهم والإحسان والقياس الصحيح للأمور؛ هذه النتائج الفظيعة التي ترتبت على سقوط البعير..

وضعْ خَطَّاً تحت هذه الكلمات (الفهم والإحسان والقياس الصحيح للأمور) لأن لنا إليها عودة.

حكوا أن رجلاً كان ينتقل لدار أخرى، وكان له بعير فأخذ يضع متاعه على ظهر البعير ويكوم أشياءه وحاجياته فوق ظهره حتى لم يبق من متاعه إلا حزمة قليلة من تبن أو قش فنظر للحمل، وعاد فنظر للقشات فقال: إنها خفيفة الوزن، وأَنَّى لهذه القشات أن تزيد هذا الحمل ثقلاً..؟ فوضعها، فسقط البعير..

فصار يقال (القشة التي قصمت ظهر البعير)

ونقول الآن: أين الخطأ..؟ ومن نلوم..؟

هل نلوم القشة؟

لا فقد فهمنا مما مضى أنها بريئة براءة خالصة.

إذن هل نلوم البعير؟

الإجابة هي لا أيضاً، لأنه من العجماوات التي لا تَعقِل، ولا يستطيع فراراً من سطوة صاحبه..

إذن فالملوم الحقيقي في هذه القضية هو الإنسان الذي أخذ يُحمِّل صاحبه (البعير) الحمل تلو الحمل، والأثقال تلو الأثقال حتى صار غير قادر على حمل قشة أو قشات صغيرات رقيقات..

ونحن البشر كذلك نتعامل مع أصحابنا كما تعامل من قبل صاحب القشة مع البعير..

وأيضاً تجد الصاحب (البعير) يتحمل ويتحمل ولكن..

دون أن يتقن إحسانه حتى النهاية..

ألم تسمع لقول المتنبي:

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين علي التمام

نعم..

فقد تجد الرجل الحكيم العاقل مقيماً على عقله وحكمته محتملاً لفظاظة زوجته وقبحها وسوء عشرتها السنين الطوال..

أو هي تكون صابرة على غلظته وسوء معاملته بل وربما ضربه وقهره..

وقد يكون ذلك بين الأصحاب أو الأقارب دون الأزواج..

ثم فجأة وبعد أن تُحمِّلتْ أحمال كثيرة، وأثقال كبيرة يحصل الانفجار بسبب شيء صغير هين لم يكن يتوقع – ربما كلاهما – أن يعقبه مثل هذا الغضب..

بل إن الطرف الأول يظل ذاهلاً فترة أمام هذا الانفجار، وكأنه يتسائل في نفسه:

لقد تحمل مني ما هو أكبر من هذا وأقسى فما باله الآن أمام هذا الشيء الصغير قد انفجر وغضب كل هذا الغضب..؟

وفي معظم الأحيان يترتب علي ذلك الحدث أثر فادح ونتائج مؤلمة ربما لا يفلح الزمن الباقي في محوها من النفوس..

وفي حقيقة الأمر أن كلا الطرفين مخطيء..!

البعير.. أقصد الإنسان الذي تحمل، والآخر الذي ظل يزيد في أحمال صاحبه مفرطاً في حسن ظنه به، ومفلتاً من بين يديه للمقياس الصحيح للأمور، ومعرضاً عن فهم حال صاحبه وخلقه.

وخطأ الأول أنه أوقع نفسه في مأزق يقع فيه كثير من الناس، فكلف نفسه ما لا تطيق وأحسن بنفسه الظن، وحسب أنه سيحسن حتى النهاية، ولم يفصح عن حاله لصاحبه فظن الآخر أن هذا خلق مكين فيه، وأنه آية في الصفح والإحسان والغفران وهو ليس كذلك في الحقيقة ..

وربما كان فيه من ذلك الكثير لكنه سينتهي يوماً، أو أن فيه خللاً.

والخلل الحقيقي عند هذا الصنف العريض من الناس هو عدم إتقان الإحسان، وقلة المعرفة بفقه الاحتساب.

فالعبد قد يخسر كل عمله الذي عمله لمدة طويلة لأنه قال في آخر هذه المدة:

إنما فعلت وفعلت.. فأحدث مَنَّاً وتباهياً بعمله وبصبره وتحمله..

وما هكذا ينبغي أن يفعل..

بل يحاسب نفسه ويديم ذلك ويقول:

إنك أيتها النفس إنما تعملين هذا الأمر لله.

ويذكِّر نفسه بذلك اليوم تلو اليوم، فإذا استقر عنده هذا المعنى وآمن بيقين قلبه؛ لم يشغله بعد ذلك شكر البشر، أو كفرهم وجحودهم لأنه إنما يأخذ أجره – عاجلاً – من الله عز وجل، بل ويذوق حلاوةً لهذا الأجر في الدنيا حتى يجزى الجزاء الأوفى يوم القيامة.

فالحقيقة القائمة أنه يعمل عملاً وينال أجره ممن يتعامل معه.

ذن فالطرف البشري الآخر ليس داخلاً في المعادلة أصلاً..

فلم الغضب والانفجار إذن..!

ولله درُّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين علّم امرأته هذا الفقه في الاحتساب في كلمات قليلات، وكانت امرأته ذات مال فوجّهها هو دون إجبار أن خير من تصدقت عليه من مالها زوجَها وولدَها، فذهبت للنبي صلى الله عليه وسلم وقالت له إن ابن مسعود يزعم أن خير من تصدقت عليه زوجي وولدي..؟

فصدقه النبي صلى الله عليه وسلم..

وقال لها ابن مسعود كلماته الحكيمة المشفقة:

(إن كنت لا تفعليه لله فلا تفعليه)..!

فعلمها رضي الله عنه بيسر ودون إكراه أنها إن لم تكن تحتسب أجرها عند الله بإنفاق هذه النفقة فالخير لها ألا تفعل حتى لا تكون خاسرة في الناحيتين: تخسر مالها في الدنيا، وتخسر ثواب الآخرة.

وقد سئل أحد السلف وكانت له زوجة قبيحة سليطة اللسان: ما صبرك عليها..؟

قال: لا أريد أن يبتلى بها غيري..!

فهذا رجل فقيه فذ يعلم كيف يحسن، بل ويزيد في إحسانه بما لا يستطيعه إلا موفَّق فيكفّ بأسها عن غيره لأنه لن يستطيع أن يتحملها ويحتسب أجر ذلك أحدٌ سواه..

ما أفقهه وما أجلده من رجل..!!

وأما خطأ الثاني فمفهوم..

فهو الغافل الذي ظن في صاحبه أعلى درجات الإحسان، فإذا به كغالب البشر ليس كذلك، ثم أخطأ حين حمَّله ما لا يطيق، ثم أخطأ مرة ثالثة حين دهش وتعجب من انفجار صاحبه..

وخطأ الثاني لا شك أفحش لأنه لم ينظر لحال صاحبه ورهافته، وظل يسيء ويسيء ولا ينظر إلا لمصلحته ومنفعته هو وفقط فكان أبعد ما يكون عن الإيثار والوفاء وهذا لعمري أكثر ما يؤلم الرفيق من رفيقه..

وإذا نظرنا للأمر نظرة باردة لا تتمعر للظلم لقلنا:

إن هذا الطرف الثاني كان من الممكن أن يظل يكسب المكاسب طوال الوقت إذا تحلى بشيء من الفهم في تعامله مع صاحبه، ولكن ..

قضى الله أن يعمي كل باغٍ يجاوز حده، فالعبد إذا تجاوز حده وظلم مرة ومرات أكسبه ذلك جرأة على الظلم والبغي، وتصير على عينيه غشاوة تخف أو تكثف بقدر ظلمه ومجاوزته..

ولا عجب.. فالظلم قرين الجهل بل إن الجهل نوع من الظلم ألم تر أن الله قال عن الإنسان لما حمَل أمانة التكاليف والإصلاح في الأرض: {.. إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}

فبين الله بصيغة المبالغة أن هاتين الصفتين متحققتين في الإنسان، ولا فكاك منهما إلا بالله سبحانه، ولذا أدام النبي صلى الله عليه وسلم الاستعاذة منهما وعلمنا أن نستعيذ منهما مع كل خروج من البيت فكان يقول:

"اللهم إني أعوذ بك أن أضِل أو أُضل، أو أذِل أو أُذل، أو أَظلِم أو أُظلَم، أو أَجهَل أو يُجْهَل عليّ"

فهذا الإنسان أعماه عن حال صاحبه ظلمُه وجهلُه ،ولذا لم يفهم غضب صاحبه وانفجاره حين غضب.....

أو بعد كل هذا نلوم القشة فنقول إنها هي التي قصمت ظهر البعير..؟

لقد ثبتت براءة القشة.. ولم يبق إلا أن يراجع الإنسان ذلك المخلوق غير المنصف نفسه..

بلسان عربي مبين

(لا أوتي برجل يفسر كتاب الله غير عالم

بلغة العرب إلا جعلته نكالاً)

مالك بن أنس

إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة

وإن أسفله لمغدق

وإن أعلاه لمثمر...

قد تظن أن هذه الكلمات خرجت من فم مؤمن عميق الإيمان لكن ويالله العجب فإن هذا الوصف الخارق البليغ إنما خرج من فم عدو من أعداء الدين....!!

القرآن كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم النبي العربي الأمين. أنزله سبحانه كتاباً معجزاً باقياً خالداً حقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

هو الجد ليس بالهزل فيه نبأ من قبلنا وخبر من بعدنا وفصل ما بيننا. من حكم به عدل ومن تركه من جبار قصمه الله. لا يمل ولا يخلق على كثرة الرد. لا تفنى عجائبه ولا تنتهي كنوزه.

وقد نزل هذا الكتاب بلسان عربي مبين... " نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ" [الشعراء: ١٩٥].

وقال تعالى: "إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " [يوسف: ٢].

وقال تعالى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" [النحل: ١٠٣].

وقال أيضاً: "كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " [فصلت: ٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

وفي سورة الشعراء يقول الله تعالى: "بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ". قال ابن كثير [٤٤٢/٣]: (هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل ليكون بيناً واضحاً ظاهراً قاطعاً للعذر مقيماً للحجة دليلاً على المحجة. ا هـ

أما آية فصلت: "كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون". يقول القرطبي [٥٧٢٨/٨]: قال الضحاك: أي أن القرآن منزل من عند الله. وقال مجاهد: أي يعلمون أنه كتاب واحد في التوراة والإنجيل. وقيل يعلمون العربية فيعجزون عن مثله ولو كان غير عربي لما علموه. قلت: هذا أصح والسورة نزلت تقريعاً وتوبيخاً لقريش في إعجاز القرآن .ا هـ

وقال ابن كثير في نفس الآية [١٠٧/٤]: لفظاً عربياً واضحاً فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشكِلة.. وقوله: "لقوم يعلمون" أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون .ا هـ واختار الله عز وجل هذا اللسان العربي لينزل به القرآن على رسوله فقال تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ " [إبراهيم: ٤]. ليفهموا عنه قوله ويعقلوا عنه منطقه.

وقد كان العرب هم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان والشعر لا يدانيهم فيه أحد وكانت هذه أكبر ميزاتهم بل شغل الشعر جانباً كبيراً من حياتهم.

وما كانوا يحترفون زراعة أو صناعة بل كانوا يزدرون صاحب الزرع، وكانوا قبائل شراذم يرعون الغنم والإبل، وكان هذا الفن فيهم له مكانة أي مكانة، والشاعر عندهم مقدم أيما تقديم حتى بلغ بهم الأمر أنه إذا نبغ شاعر في قبيلة من القبائل هنأتها القبائل الأخرى وقامت فيها الاحتفالات وعم السرور بنبوغ هذا الشاعر.

وسر هذا الاحتفاء أن الشاعر كان هو الجهاز الإعلامي للقبيلة والصادّ والمدافع والمتحدث باسم القبيلة والمعلن لمفاخرها الممجد لها المتغنى بتاريخها وأمجادها.

وكان انتماء الشاعر لقبيلته مطلقاً يرشد إن رشدت ويضل إن ضلت حتى قال قائلهم عن قبيلته:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وهذا شاعر السلام زهير ابن أبي سلمي يخالف – من أجل القبيلة – طبيعته ودعوته للسلام فيقول:

لا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاةً ظالمين وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا

نعود فنقول إن الشعر كان له مكانة بينهم لأنه دليل الفصاحة والفحولة والبيان حتى أسموا كل من ليس بعربي أعجمياً.

فجاء القرآن ليتحداهم ويعجزهم في مضمارهم الذين هم نجومه ومُقدَّميه فمع أنه جاء بلسانهم وعلى مثل ما يعرفونه من البيان إلا أنهم عجزوا أمامه أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور أو سورة واحدة.

وفى ذلك يقول الإمام الطبري في مقدمة تفسيره [٨/١]:

(القول في البيان عن اتفاق معاني آي القرآن، ومعنى منطق من نزل بلسانه القرآن من وجه البيان والدلالة على أن ذلك من الله تعالى ذكره الحكمة البالغة مع الإبانة عن فضل المعنى الذي به باين القرآن سائر الكلام)

ثم قال:

فبيّنٌ ألا بيان أبين ولا حكمة أبلغ ولا منطق أعلى ولا كلام أشرف من بيان ومنطق تحدى به امرؤ قوماً في زمان هم فيه رؤساء صناعة الخطب والبلاغة وقيلِ الشعر والفصاحة والسجع والكهانة على كل خطيب منهم وبليغ وشاعر منهم وفصيح وكل ذي سجع وكهانة. فسفّه أحلامهم وقصر بعقولهم وتبرأ من دينهم ودعا جميعهم إلى اتباعه والقبول منه والتصديق به والإقرار بأنه رسول الله إليهم من ربهم، وأخبرهم أن دلالته على صدق مقالته وحجته على حقيقة نبوته ما أتاهم به من البيان والحكمة والفرقان بلسان مثل ألسنتهم ومنطق موافقةٌ معانيه معاني منطقهم، ثم أنبأ جميعهم

أنهم عن أن يأتوا بمثل بعضه عَجَزة ومن القدرة عليه نَقَصة فأقر جميعهم بالعجز وشهدوا على أنفسهم بالنقص ..ا هـ .

فقامت الحجة عليهم بما يعرفون ويفهمون من اللسان العربي ولذلك فمعاني كتاب الله المنزل لمعاني كتاب العرب موافقة وظاهره لظاهر كلامها ملائماً، وإن باينه كتاب الله بالفضيلة التي فَضَل بها سائر الكلام والبيان.

قال الطبري [١٢/١]:

"فإذا كان ذلك كذلك فبينٌ إذ كان موجوداً في كلام العرب الإيجاز والاختصار والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمال الإطالة والترداد والتكرار، وإظهار المعاني بالأسماء دون الكناية عنها، والإسرار في بعض الأوقات، والخبر عن الخاص في المراد بالعام الظاهر، وعن العام في المراد بالخاص الظاهر، وعن الكناية والمراد منه المصرح، وعن الصفة والمراد الموصوف، وعن الموصوف والمراد الصفة، وتقديم ما هو في المعني مؤخر، وتأخير ما هو في المعني مقدم، والاكتفاء ببعض

من بعض، وبما يظهر عما يحذف، وإظهار ما حظه الحذف – أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيِّهِ محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك في كل ذلك له نظيراً وله مثلاً وشبيهاً. ا هـ

يعنى أن كل هذه الأساليب العربية والتي تعرفها العرب موجود مثلها في القرآن بما يفهمونه ويدركونه لذلك لما جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا القران وقال لهم قولوا لا إله إلا الله ما قالوا له فسِّر وبين. ما ندرى معنى ما تقول ؟ بل فهموا أنها تعنى الإذعان والتسليم.

يبين لنا ذلك قصة الصحابي الجليل الطفيل بن عمرٍو الدوسى لما أتي مكة وقد سمع من أصحابه أن هناك نبياً جديداً ولكن كلامه مثل السحر، وحذّروه من أن يستمع ما أتي به النبي من كلام. فدخل مكة وقد حشا أذنيه كرسفاً ثم قال في نفسه: "واثكل أمي إني لرجل لبيب شاعر لا يخفى عليّ الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع هذا الرجل ما يقول فإن كان ما يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته".

وفي الإصابة لابن حجر أنه أنشد النبي شعراً فقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم المعوذتين فأسلم.

فهذه القصة تدل علي أن الأوائل كانت ألسنتهم وأفهامهم عربية أصلية بالسليقة والطبيعة فكانوا يفهمون القرآن ويدركون معانيه وروعة ألفاظه وبلاغة عباراته وآياته لا يحتاجون في ذلك لمن يشرح ويفسر ويؤول.

ولذلك فلا ترى في تفاسير الصحابة ومن بعدهم من التابعين شيئاً من الكلام علي حسن بيانه وبلاغته بل يكاد يقتصر علي تفسير لفظة غريبة أو بيان مشكل.

ولكن لما اتسعت رقعة الإسلام بالفتوحات – أقام الله عز وجل الجهاد في الأرض – واختلط اللسان العربي بالألسن الأخرى من العجم انحسر هذا الفهم وهذا الذوق واحتيج لوضع قواعد للعربية تحفظ هذا اللسان ثم انحرفت الأفهام كثيراً عن فهم مرادات الكلام العربي فاحتاج الأمر إلى التفسير والتأويل واستخراج عجائب القرآن والبيان عن بلاغته ووجوه إعجازه.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنه عن وجوه التفسير أن فيها وجها تعرفه العرب من كلامها.

مما سبق يتبين لنا أن علم التفسير وقراءة القرآن يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بهذه اللغة العربية الجليلة ويرتبطان بمعرفة علومها من (المعاني) و (البيان).

وما أحوجنا أن نعود لقراءة تفسير مثل تفسير الطبري شيخ المفسرين رحمه الله نستخرج كنوز القرآن وبلاغته ونتذوق ما فيه من جمال.

وقد ذكر إمام من أئمة البلاغة والتفسير – برغم اعتقاداته المعتزليه المحذورة – وهو جار الله الزمخشري صاحب الكشاف أهمية معرفة هذه العلوم لفهم القرآن إذ يقول في مقدمته [٩٦/١]:

"ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح( ) من غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق سلكها – علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم ، كما ذكر الجاحظ في كتاب "نظم القران" فالفقيه وإن برز على

الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه – لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق؛ إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات قد رجع زمانا ورجع إليه، ورد ورد عليه، فارساً في علم الإعراب مقدماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس دراكاً للمحة وإن لطف شأنها منتبهاً إلى الرمزة وإن خفي مكانها لا كزاً جاسياً ولا غليظاً جافياً متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم

والنثر مرتاضا غير ريض( ) لتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقة، ووقع في مداحضه ومزالقه. ا هـ

ونختم بما ذكره الدكتور محمد أبو موسى في كتابه (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) إذ يقول في مقدمة الكتاب: (ويقوم بعض كتابنا بتفسير القرآن تفسيراً بعيداً عن الإعراب واللغة، ومعتمداً على إيحاء الألفاظ وظلالها وهذا ليس هو الطريق الذي سلكه أهل العلم وإن كان قد خدع به من لم يؤسسوا علمهم على الوجه الصحيح. كما أن بعض المشتغلين بالعلم يدعون إلى الرجوع إلى القرآن وحده في دراسة أصول العربية من نحو وصرف وبلاغه، وهذا خطأ بيّن لأن القرآن إنما يفهم في ضوء اللسان الذي أنزله الله به، وهذه قاعدة العلماء ولهذا حفظوا اللسان، وحفظوا شعره ونثره، وما تراجز به الأعراب علي أفواه القلب كما كانوا يقولون، لأن هذا الذي يتناثر من أفواههم هو السبيل إلى فهم القرآن.

روي عن ابن عباس أنه قال: ما كنت أدري ما قوله تعالى "ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين" حتى سمعت ابنة ذي يزن الحميري وهى تقول:" أفاتحك – يعني أقاضيك " وجاءه رجل من هذيل فقال له ابن عباس ما فعل فلان؟ قال: مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء فقال ابن عباس: فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قال: ولد الولد) ا هـ نقلاً عن البرهان.

وقال السيوطي في الإتقان [٢/٢٤]:

قال أبو بكر بن الأنباري قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيراً الاحتجاج على غريب القرآن ومشكِله بالشعر..

ثم أخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب ا هـ .

وفي مثل هذه النقول ما يؤيد ما وضعناه في مفتتح المقال من كلام الإمام مالك رحمه الله ورضي عنه.

ونسأل الله عز وجل أن يهدينا سواء السبيل والله المستعان والحمد لله رب العالمين.

الختام المعجز

تلك الألفاظ البديعة،

وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة،

مما يتعذر على البشر ويمتنع .....

الباقلاني (إعجاز القرآن)

المتدبر للقرآن يجد العجب ويقع على الكنوز. وإن ظن المرء أنه قد استوفى وكرر كثيرا واستوعب، يرجع فيعلم أنه كان واهما أى وهم، وهذا من علامات إعجاز هذه الرسالة الربانية التي لا تخلق بكثرة الترداد ولا تقدم بمرور الأعصار وكرور الأيام ولا تفتر حرارة مخالطتها مادام العبد لا تفتر حرارة قلبه ، ولا يفتر تعلقه بربه. وما أصدق هذه الكلمة التى قالها عثمان رضي الله عنه: "لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم"

ولأن القرآن كلام الله الملك القدوس السلام فإنه كله مرتبط بأسماء الله عز وجل الحسنى وصفاته العليا والقرآن من أوله إلى آخره ما هو إلا تمجيد وتعظيم لله، وإن اختلفت سياقات هذا الغرض، ولكنك واجده في آيات الترغيب وفى آيات الترهيب وفى آيات العذاب وفى آيات الرحمة وفى آيات القصص بل وفى آيات الأحكام العملية التي تتحدث عن واقع الناس وعباداتهم ومعاملاتهم ونكاحهم وطلاقهم وبيوعهم وغير ذلك.

وقد جاءت ختامات الآيات القرآنية صورة معجزة فائقة الجمال والكمال يقصر القلم عن إن يوفى شيئا من جمالها وعظمتها، وتنقطع الأنفاس مبهورة عند قراءتها، وينصدع القلب لربه سبحانه حين تمس شغافه، ويمتلئ الوجدان نوراً ومحبة وتعظيماً وإجلالاً وذلاً، ولا تجد العين إلا البكاء ليكون أبلغ تعبير وأبسطه عن هذه الأشياء الجميلة التي تقع فى النفس عند مباشرة هذه العظمة وحينئذ ينعجم اللسان عاجزا عن الوصف والكلام.

وذلك أن كل آية عالم كامل بأسره، ويظل المرء يعيش مع الآية ويتنقل معها كلمة كلمة وعبارة عبارة حتى يأتى إلى ختامها فيجده غالبا قد اشتمل على أسماء الله عز وجل وصفاته وتجده فى المنتهى قد ناسب ووافق ما كانت تتحدث عنه الآية.

وهذا ما أشار إليه الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في كتابه النفيس (القواعد الحسان في تفسير القرآن) حيث أشار إلى هذا التناسب بين ختام الآيات من أسماء الله عز وجل الحسنى وما احتوت عليه من حُكم فقال:

القاعدة التاسعة عشر ختم الآيات بأسماء الله الحسنى يدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم اهـ.

وذكر قصة الأعرابى الذي قرئت إمامه أية المائدة: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة٣٨] وأخطأ القارئ فقرأها (والله غفور رحيم) فأنكر الأعرابى ذلك لأن المقام لا يتناسب مع هذا الختام فقطع يد السارق حكم رادع لا يناسب أن يختم الكلام بالمغفرة والرحمة بل إن قطع اليد يتناسب مع عزة الله وحكمته.

واستطرد الشيخ السعدى رحمه الله قائلا: وهذا باب عظيم من معرفة الله ومعرفة أحكامه، من أجل المعارف وأشرف العلوم. تجد آيات الرحمة مختومة بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر...

ثم قال: ولا تكاد تجد ذلك في كتب التفسير إلا يسيرا منها اهـ.

وهذه القاعدة مطرد وجودها في القرآن. فانظر مثلا إلى قوله تعالى في سورة البقرة {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ

إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة١١٥] قال السعدي فى تفسيره: أى واسع الفضل واسع الملك جميع العالم العلوى والسفلى بعض ملكه، ومع سعته فى ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله ومحيط علمه بالأمور الماضية والمستقبلة، ومحيط علمه بما فى التوجه الى القِبَل ( ) المتنوعة من الحكمة ومحيط علمه بنيات المستقبلين لكل جهة من الجهات إذا أخطأوا القبلة المعينة فحيث تيمم المصلى تيمم الى وجه ربه.

وقال فى موضع اخر: وقد يكتفى بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذكر الاسم العظيم، عرفوا ما ترتب عليه من الأحكام مثل قوله تعالى {فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة٢٠٩] لم يقل: فلكم من العقوبة كذا بل قال: {فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي فإذا عرفتم عزه وهى قهره وغلبته وقوته وامتناعه وعرفتم حكمته وهو وضعه الأشياء موضعها وتنزيلها محالها أوجب لكم الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم؛ لأن من حكمته معاقبة

من يستحق العقوبة، وهو المصر على الذنب مع علمه أنه ليس لكم امتناع عليه ولا خروج عن حكمه وجزائه لكمال قهره وعزته اهـ.

واطراد هذه القاعدة في القرآن هو من الله عز وجل الحكمة البالغة وهو مقتضي إحكامه عز وجل للقرآن وأنه ما كان ليأتي إلا بأنسب الألفاظ وأحكم العبارات وأبلغ التراكيب والأساليب مبنيً ومعنيً إعمالاً لقوله تعالي {الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود ١]. فقوله تعالي {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} يقتضي شمول الإحكام في كل شيء ومن كل وجه.

واطراد هذه القاعدة في القرآن هو أيضا منتهي الرحمة من الله عز وجل بعباده، ومعاملته إياهم بما يناسبهم ويناسب فهمهم وعقولهم حيث بين لهم ذلك وجعل فهم ذلك مدركا بإعمال عقولهم علي قصرها وقلة علمها، وما ذلك بعزيز علي الله سبحانه فهو الذي أنزل الكتاب والميزان، وهذه القاعدة من الميزان فإن العقول البشرية فطرت وجبلت علي الوصول إلى ما يريحها ويقنعها بأن تدرك الحكمة في الأمور والعلة في إيرادها، وتدرك حكمة الله عز وجل في أقواله وأحكامه وشرعه الواقع علي البشر.

ولكن من تمام علوه سبحانه وتعالى وعلمه وعزته وحكمته واستقلاله بالعلم المطلق أخفى الحكم أحيانا، وما ذلك منه سبحانه أيضاً إلا منتهى الحكمة والرحمة كذلك، فان الإنسان قد يشقى بالمعرفة أحيانا فأظهر الله عز وجل ما المصلحة في إظهاره وأضمر ما المصلحة في إضماره.

وكذلك هذا فيه اختبار لعبودية العبد وتسليمه وانقياده التام لربه في طاعته فيما لا يعلم له علة ولا سبباً، ولا يكون ذلك الانقياد المطلق إلا للوحي لأنه المنهل المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

هذا وقد تظهر مناسبة الآيات مع ختامها ظهورا يلمسه كل أحد، وقد تخفي شيئا، وقد تخفي حتى يعسر إدراك ذلك.

ومما تظهر فيه المناسبة قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات١] والسياق في ذكر من يعلون بأصواتهم على صوت النبي فيحذر الله عز وجل هؤلاء أن يقدموا

كلامهم وآراءهم علي كلام الله ورسوله أويعلون بها على كلام الله ورسوله فاتقوا الله لأنه سميع لما تقولون، عليم بما تظهرون وما تبطنون. فهذا واضح والحمد لله

وقد تخفي المناسبة شيئا كمثل قوله تعالى:

{مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً} [النساء١٣٤]

وهنا يرد سؤالان – ما مناسبة الختام للآية؟

– وما مناسبة قوله تعالى {وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً}، ولم يقل إن الله سميع بصير؟

والجواب – والله أعلم – أن الله سبحانه يتلطف – وهو اللطيف – في خطابه لعباده، ويرشدهم ويهديهم، فمن كان يريد بعمله الثواب والأجر في الدنيا فإن له عندنا ذلك وما له في الآخرة إلا النار. هذا على أن المقصود بها المنافقون أو الذين يراءون بأعمالهم. ولكن يبقى المعنى العام للآية والعبرة بعموم اللفظ. فمن تمام لطف الله عز وجل وإرشاده لعباده يلفت انتباههم إلى أجر الآخرة وأن الإنسان

لا ينبغي أن يغتر بالثواب العاجل وينظر الناس في الدنيا، بل العاقل الفطن الذي لا يجعل الدنيا أكبر همه بل يجعل أكبر همه الآخرة. وما عند الله لا ينال إلا بطاعته ودعائه فهو سبحانه كان وما زال سميعا يسمع دبيب النملة السوداء على الصفاة الصماء في الليلة الظلماء، فادعوه واطلبوا حاجاتكم منه ولا تطلبوا نظر غيره فهو الذي لا تغلطه كثرة الأصوات على اختلاف اللغات وتفنن الحاجات وهو سبحانه كان وما زال بصيرا يبصركم ويبصر أعمالكم يعلم ما جرحتم ويعلم ما تستحقون عليه الثواب أو العقاب في الدنيا والآخرة. وبهذا والحمد لله يظهر مناسبة ختم الآية بصفتي السمع والبصر.

وقد يخفي وجه المناسبة ويشكل كما في قوله تعالي:

{مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [لقمان٢٨]

فما مناسبة الختم بالسمع والبصر مع الكلام على الخلق والقدرة ؟

قال العلامة الآلوسي في روح المعاني [١١/١٣١]:

"إن الله سميع" يسمع كل مسموع "بصير" يبصر كل مبصر في حالة واحدة لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض فكذا الخلق والبعث وحاصله كما أنه تعالى شأنه يبصر واحد يدرك سبحانه المبصرات وبسمع واحد يسمع جل وعلا المسموعات، ولا يشغله بعض ذلك عن بعض، كذلك فيما يرجع الى القدرة والفعل. فهو استشهاد بما سموه فشبه المقدورات بما يراد منها بالمدركات فيما يدرك منها... وقيل إن الجملة تعليل لإثبات القدرة الكاملة بالعلم الواسع وأن شيئا من المقدورات لا يشغله سبحانه عن غيره.

ثم قال: وأيا ما كان يندفع توهم أن المناسب لما قبلُ أن يقال: إن الله قوى قدير أو نحو ذلك دون ما ذكر لأن الخلق والبعث ليس من المسموعات والمبصرات. وعن مقاتل أن كفار قريش قالوا: إن الله تعالى خلق أطوارا نطفة علقة مضغة لحما فكيف يبعثنا خلقا جديدا فى ساعة واحدة فنزلت...

وعلى كون سبب النزول ذلك قيل: إن الله تعالى سميع بقولهم ذلك بصير بما يضمرونه اهـ.

وقد يشكل على ذلك أيضا قوله تعالى: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} [الفرقان٥] وهذا من أدق وأعظم وأجمل المواطن، فقد يقال إن الأنسب أن تختم الآية بما يفيد العلم والحكمة أو القدرة، ولكن قال {..إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً } [الفرقان٦] وليس السياق سياق رحمة ومغفرة فلماذا جاء الختام به؟

قال فى روح المعانى: [٩ /٥٧١] عن ذلك:

إنه جل وعلا متصف بالمغفرة والرحمة على الاستمرار، فلذلك لايعجل عقوبتكم على ما أنتم عليه مع كمال استيجابه إياها، وغاية قدرته سبحانه عليها ولولا ذلك لصب عليكم العذاب صباً..

وقال صاحب الفرائد: يمكن أن يقال: ذكر المغفرة والرحمة بعد ذلك لأجل أن يعرفوا أن هذه الذنوب العظيمة المتجاوزة عن الحد مغفورة إن تابوا وأن رحمته واصلة اليهم بعدها، وألا ييأسوا من رحمة الله تعالى ما فرط منهم مع اصرارهم على ما هم عليه من المعاداة والمخاصمة الشديدة اهـ.

وهذا الوجه الأخير حسن جدا، وهو موافق لرحمته سبحانه، وأنها غلبت غضبه عز وجل، فيكون هذا الختام بمثابة الدعوة لهم للرجوع والتوبة بعد ما اقترفوا من عظائم الذنوب، فلم يفد هذا الختام فقط فى إثبات العلم والحكمة والسمع والقدرة – وهى لوازم من يغفر ويصفح – بل أثبت حكماً زائداً وهو أنهم مقبولون مغفور لهم إن هم تابوا ورجعوا لربهم وانخنسوا عما يقولون على الله عز وجل وعلى نبيه فكان هذا الختام أنسب وأحكم وإن خفى ولطف.

والكلام في هذا الباب شامل للتفسير والكلام على أسماء الله عز وجل وصفاته وهو – نحسبه– من أعظم الأبواب التي تؤثر في القلب وتفتح الآذان والعقول لتدبر كلام الملك العظيم سبحانه وتعالى إذ هو المقصود من التلاوة مع حدوث الأثر الناتج عن التدبر ألا وهو العمل. وأعظم العمل ما كان مرتبطاً بالقلب. فحين يباشر الإنسان هذه العلوم يتحرك قلبه وتزيد معرفته بربه وتزيد عبوديته له سبحانه ولا مانع في ختام هذه الخواطر أن ندندن حول

بعض الآيات في سورة الحديد نحاول استخراج مكنونات وأسرار هذا القرآن العظيم الذي لا تنقضي عجائبه.

يقول الله عز وجل فى سورة الحديد المبدوءة بأسمائه الحسنى والتسبيح والتمجيد والتعظيم: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{١} لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٢} هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد]

وقد أتت هذه السورة بهذه البداية من تسبيح الله عز وجل وكأنها الإجابة لختام سورة الواقعة قبلها التى فى أخرها {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [الواقعة٩٦].

وكيف لا تسبحون أيها البشر والله عز وجل قد أنزل إليكم النعمة تلو النعمة، وإن تعدوا نعمة واحدة منها وما فيها لاتحصوه وأرسل إليكم الرسول تلو الرسول ليرشدكم ويهديكم ويأخذ بأيديكم لأحسن السُبُل؟ وكيف لا تسبحونه والله عز وجل يسبح له ما فى السموات وما فى الارض، وما من شيئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون

تسبيحهم؟ ولماذا يسبحونه؟ لأنه من كملت عزته وعلا في سؤدده وغلبته لا يدانيه أحد ولا يغالبه مغالب، وهو كذلك الحكيم الذى جعل هذا التسبيح علامة على الإيمان وحجة على الخلق الغافلين عن تعظيم ربهم وتمجيده وطاعته.

يقول تعالى {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الحديد٢]

والختام بطلاقة القدرة فيه مناسبة ظاهرة فالملك لله لا غير فهو مالك كل شيء وصاحبه وملك كل شيء وسيده، الآمر فيه بما يريد إيجاداً وعدماً ولذا فلا أحد يستطيع حياة لأحد ولا يملك له ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فالله المختص بذلك لا سواه لأنه علي كل شئ قدير فهو المالك الحقيقي، المالك الملك فكمال قدرته من كمال ملكه سبحانه.

ثم يقول عز وجل {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد٣]

ولا أحسن من تفسير النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الأسماء الجليلة العظيمة فقد ورد في الحديث عند مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا إذا أخذنا مضاجعنا أن نقول: اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم. ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذٌ بناصيتها. اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء. اقض عنا الدين وأغننا من الفقر".

وهي أسماء كلها فيها معاني العلم والإحاطة ثم جاء التعقيب شاملاً عاماً مفيداً لعلم الله تعالي الشامل لما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون فقال: {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [الحديد٣] .

ثم تأتي الآيات التالية بعد ذلك كأنها الشرح والتفصيل لما سبق:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ

السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [الحديد ٤] .

فمع علم الله عز وجل الشامل التام كذلك فهو معنا أينما كنا وهو مصداق قوله تعالى {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة٧] .

قال السعدي رحمه الله:

وهذه المعية معية العلم والاطلاع ولهذا توعد ووعد بالمجازاة بالأعمال بقوله {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال.. فمجازيكم عليها اهـ.

وختم الآية بصفة البصر أنسب وألصق بالمعية كما يقول واحد وهو مع آخر أنا معه وأبصره وأراه ولا يقول وأنا أعلمه أو نحو ذلك، فناسب جداً أن تخص هذه الصفة بالذكر في الختام.

ويقول تعالى {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ{٥} يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الحديد] .

قال البقاعي في نظم الدرر [٢٦١/١٩]: "يولج "يدخل ويغيب بالنقص والمحو "الليل في النهار" فإذا قد قصر بعد طوله فملأ الضياء الأقطار.... "ويولج النهار" الذي عمّ الكون ضياؤه ... "في الليل" فإذا الظلام قد طبق الآفاق، والطول الذي كان له قد صار نقصاً. ولما كان في هذا إظهار أخفى الأشياء حتى يصير في غاية الجلاء؛ أتبعه علم ما هو عند الناس أخفى ما يكون فقال: "وهو" أي وحده "عليم" أي بالغ العلم "بذات الصدور" أي ما يصحبها فتخفيه، فما يخرج منها من الهمزات على مدى الأيام علي كثرة اختلافها وتغيرها وإن خفيت علي أصحابها اهـ.

وقال السعدي رحمه الله: {وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} أي بما يكون في صدور العالمين فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته اهـ.

ونقول ما المناسبة بين ذكر الليل والنهار في أول الآية، وختمها باتصاف الله عز وجل بعلم ما في ذات الصدور؟

والجواب – والله أعلم – أن الليل علامة علي الزيغ والضلال، والنهار علامة علي النور والهدى، فكما أن الله عز وجل بقدرته يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويدخلان علي بعضهما البعض فكذلك النور والظلام، أو الهدى والضلال يدخل كل منهما على القلب بعلم الله عز وجل بكل قلب ومعرفته التامة بمن يستحق أن يكون من أهل النور، ومن يستحق أن يكون من أهل الظلام. ومن يكون قلبه مسوداً فيخلع منه الله هذا السواد ويولج النور، ومن يكون في قلبه النور ويرِد عليه الظلام والغي. وفي هذا أبلغ البيان بتفرد الله عز وجل بهذه الصفة فلا هداية ولا توفيق إلا بهدايته وتوفيقه سبحانه وحده ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

فما أحوجنا أن نطلب منه الهداية والنور، ونستعيذ به من الزيغ والضلال. ولذلك قال في الآية التالية مباشرة هادياً وداعياً وآمراً للناس: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...}.

ولذلك أيضاً قيل بعد آيتين {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحديد ٩] .

فبعد أن أرسل إليهم الرسول لهدايتهم وإرشادهم للحق والفلاح – وهذا منه سبحانه هو الرأفة والرحمة والشفقة – أتم عليهم النعمة بأن أنزل إليهم النور المبين والطريق القويم آيات بينات ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وأكد العبارة بقوله: {وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} بأن واللام في قوله: "لرؤوف".

ونكتفي بهذا القدر والله المستعان والحمد لله رب العالمين.

احفظوا القرآن

(لا يغرنكم من قرأ القرآن.. إنما هو كلام نتكلم به.

ولكن انظروا من يعمل به.)

من أقوال السلف

حينما قال الأمام أحمد لابنه عبد الله: احفظ هذا المسند فإنه سيكون للناس إماماً. ماذا كان يقصد بكلمة احفظ؟

هل كان يقصد الحفظ اللغوي بأن يبقيه في حفظه وصيانته، أم كان يقصد حفظ الصدر أم كان يقصد معنىً آخر..

أم لعله قصد هذه المعاني جميعاً..؟

وحين نحاول صرف أحد هذه المعاني على القرآن الكريم فأيها نختار.. إنها تصح جميعها وأكثر مع القرآن..

فمطلوب أن يُحفظ القرآن ويُصان، وأن يُقرأ ويُستظهر، وأن يتلى ويعمل به، وهذه أعظم مراتب الحفظ حفظ الصدر وحفظ العمل..

ليس حفظاً في الذاكرة وتعهداً له بالقراءة والمراجعة خشية النسيان وفقط فحتى النبي صلى الله عليه وسلم كانت تلتبس عليه الآية أحياناً؛ بل حفظ في النخاع والعظام والأوصال..

حفظ يتخلل اللحم والدم عميقاً في القلب فيثمر ويزهر.. إذا تحرك عضو تحرك بالقرآن وإذا تكلم تكلم بنهج القرآن، وإذا نام نام على

القرآن، وإذا استيقظ اهتدى بالقرآن، وإذا حكم حكم بالقرآن، وإذا تحاكم تحاكم إلى القرآن، وإذا تعامل تعامل بالقرآن..

ولله در أُمُّنا الفصيحة الغالية عائشة رضي الله عنها لما قالت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "كان خلقه القرآن"

أي أنه كان يتحرى في العمل ما أمر به في القرآن لا يحيد عنه طرفة عين، فكأنه قرآن يمشي على الأرض.

وانظر إليه لما نزلت سورة النصر كيف تتبع الآيات كلمةً كلمةً في عبادته. قال الله:

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)}

فقال النبي في سجوده وركوعه (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي)

قالت عائشة: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو به يتأول القرآن.

أي يتتبع ما أمر به في القرآن فيئول به إلى العمل، وإذا تأملت دعاء النبي فستجده موافقاً للآية تمام الموافقة:

فسبح	سبحانك اللهم
بحمد ربك	ربنا وبحمدك
واستغفره	اللهم اغفر لي

هذا هو تأويل القرآن الذي قصدته عائشة وهو تحقق الأمر والعمل به.

فحفظ القرآن بالعمل هو أعلى أنواع الحفظ لأنك قد تجد الحافظ المتقن بلسانه، وليس له من حفظ العمل إلا أقل نصيب، وقد تجد من لا يحفظ إلا اليسير من القرآن لكنه عامل من العاملين فهذا أعلى درجة ممن حفظ لسانه وغفل قلبه..

وما أحسن ما قال الحسن:

نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخِذوا تلاوته عملا فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع الفكر على معاني آياته فإنها تُطلع العبد على معالم

الخير والشر بحذافيرهما وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشيد بنيانه وتوطد أركانه..

والإنسان الذي يقال له يوم القيامة: "اقرأ وارتق ورتل فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها.." لا يعقل أن يكون قلب هذا القارئ في واد ولسانه في واد، وهل يعقل أن يصل إلى هذه الدرجات العالية وهو قد فصل بين الحفظ والعمل..؟

اللهم لا. إذ كيف يكون كذلك والله لا يقبل الذكر من قلب غافل لاه كما ورد بذلك حديث عن النبي صاى الله عليه وسلم.

وأيضاً فالماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة فكيف يكون مع أبر الخلق وهم الملائكة وهو غافل عن حفظ القرآن بالعمل..؟

وإذا قلنا إن هذا النوع من الحفظ هو حفظ الذكر والعمل، فهناك مستويات أخرى للحفظ ينبغي أن تكون في حسباننا. من ذلك: حفظ تفسيره.

ولا أعني بذلك أن يكون كل الناس علماء بالتفسير والتأويل ومعرفة وجوه التفسير وطرقه ومدارسه ومواطن الخلاف.. بل أعني أن يعلم العبد عن كتاب ربه ولا ينفصل عنه واجداً نفسه حين يقرأ أو يصلي أو يسمع يسبح في فراغات من الغموض أو الالتباس، ويترتب على ذلك أن ينفصل وجدانياً عن القرآن ولا يستشعره ولا يتدبره ويغلق باب قلبه بينه وبين القرآن بينما هو مأمور بضد ذلك إذ يقول تعالى في سورة محمد:

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}، ويقول في سورة (ص): {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}.

وانفتاح القلب للقرآن فيه كل الخير ومن صور الانفتاح التي هى نتاج للتدبر والمعايشة البكاء عند تلاوة القرآن وسماعه.. حين يرتعش ذلك الوتر الواصل بين القلب وبين الآيات وتنتقل الشرارة الوامضة إلى المعين المعبر عما بداخل الإنسان فتنساب العين بما

فيها وتغسل هذه الدموع ما في القلب من بقايا الران وينصدع القلب لبارئه، واجعل أمر البكاء بيني وبينك في حديث آخر..

وانظر إلى هذه الآية العجيبة إذ مثّلتْ الأمر تمثيلاً دقيقاً وكأن هذا الذي لم يتدبر القرآن وأعرض عنه قد وضع الأقفال والمتاريس وقال للقرآن: إياك أن تأتيني، وقد كان الكفار في بداية بعثة النبي يستخْفون ليتسللوا ليتسمعوا لهذا الكلام العجب الذي لا يشبه كلام البشر ولا السحرة ولا الكهنة، بل إنهم سجدوا حين قرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم ثم كذَبوا قائلين إنهم فعلوا ذلك لما ذكر آلهتهم وحاشاه أن يفعل ذلك صلى الله عليه وسلم.

ولكن حقيقة الأمر أنهم لم يستطيعوا ثباتاً أمام هذا القرآن الذي خشعت له السماوات والأرض وانهدت له الجبال.

والكلام على تدبر القرآن يذكرني بأمر هام ومزلق خطر نسأل الله أن ينجينا منه ألا وهو ما يمكن أن نسميه (التدبر المؤقت)..

فإن العبد حين يقرأ القرآن ويظل معه وقتاً يذوب ويتدبر فإذا انفك عنه عاد الأمر لما كان عليه قبلُ من الغفلة والبعد والقسوة وهذا

أمر– والله – تُصرف فيه الأعمار لإصلاحه ومعالجته وليس من علاج إلا بمداومة الالتصاق بالقرآن بكل معاني الالتصاق ولعل هذا ما حملني على الحديث على شمولية معنى الحفظ.

وإذا نظرنا للآية الثانية نرى تقريراً بأن القرآن كتاب مبارك، ونرى إخباراً فيه معنى الأمر أن القرآن ما نزل إلا ليُتدبر ويَتذكر به أولو الألباب..

وانظر كيف ثقل (دال)، و(باء) كلمة يدّبّر وكأن في ذلك إشارة لأهمية الأمر وثقله وإرادة تنفيذه على أكمل وجه، والمداومة عليه والصبر عليه وطول النفس..

ليدّبّروا...

وانظر أيضاً إلى قوله (أولو الألباب) إذ بتدبره للقرآن صار شأنه شأن أولي الألباب، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى، فكذلك يزيد أولي الألباب بتدبرهم القرآن عقلاً وحكمة، وتذكراً لآيات الله وتوبة وإنابة وخوفاً ورجاءاً..

وتأمل كلمة (أَمْ) في الآية الأولى التي لعل الأقرب أنها بمعنى (بل) فتكون تتمة الكلام استمراراً للإنكار والتوبيخ وتقريراً لحال الذين أعرضوا عن القرآن أنهم أبعد الناس عن تدبر آياته بل قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير ولا لفهم قرآن كما قال الشنقيطي رحمه الله.

ولله در السلف الصالح الذين فهموا هذه القضية حق الفهم إذ كانوا يتعلمون ألفاظه ومعانيه حتى يعملوا به، والذي لا يفهم معناه كيف يعمل به..

وقد كانوا لا يتجاوزون العشر آيات حتى يتعلموهن ويعملوا بما فيهن.. وكان الرجل إذا قرأ سورة البقرة (أي حفظها وتعلم ما فيها من العلم والعمل) جدَّ فيهم، أي عظم وشرفت منزلته.

هذا مستوى آخر من الحفظ نريده وندعو إليه.

ومن مستويات حفظه كذلك والتي لا تقل أهمية عما قبلها وكلها تصب في قضية المعنى والعمل ودوام الالتصاق ألا وهو حفظ بلاغته.

ولا أعني أيضاً أن يكون المرء زمخشرياً – بلاغةً لا عقيدةً – فيدرك دقائق البيان ويغوص للنيل من خفايا لآلئ القرآن ونسأل الله أن يبلغنا ذلك؛ ولكن المقصود ألا يكون محروماً من استشعار لذة الفصاحة وإعمال الفكر حال القراءة ودوام التساؤل والتفتيش عن معاني العبارات ومناسبات الآيات، والختم بالأسماء الحسنى واختلافه من آية لآية، وإعجاز اختيار الألفاظ ومعرفة أساليب العرب التي جاءت بينة في القرآن إلى غير ذلك من وجوه البلاغة والبيان. والكلام في هذا الباب يحتاج لأحاديث كثيرة.

ومن مستويات حفظ القرآن كذلك أن تجعل المصحف قريباً منك، أو لصيقاً بك، إذا أردت القراءة أو المراجعة أو الحفظ وجدته في المتناول فإن الهمة تأتي كالومضة فإن اغتنمتها وإلا انطفأت..

والحذر الحذر من هذا التراب الذي يعلو مصحفك فإنه علامة الهجر التي لا تخطئ، وشكوى الرسول يوم القيامة سارية ماضية حين يقول عن قومه إنهم اتخذوا القرآن مهجوراً.. اتخذوه مهجوراً..

تعمدوا أن يفعلوا ذلك ويقوا على ذلك فترات فحدث ذلك الانفصال بين العلم والعمل.. بين القرآن والحياة.. بين القرآن والقلوب..

فاللهم ارزقنا حفظ القرآن بكل أنواع الحفظ..

وأصلح به القلوب..

وأنر به الطريق.

خاتمة

ألقى رحله...

نظر أمامه ليرقب من بعيد خيوط الضوء الأولى إذ تتهيأ للسطوع...

لقد ترك الليل من خلفه بطوله وسهده وما فيه من الأحداث والوقائع والقيام والمناجاة...

بدأ الليل ينجلي فوضع يده فوق صدره وبدأ يعد ضربات قلبه مع مرور اللحظات والدقائق مترقبا شروق يوم جديد وانتهاء ليل قريب...

لكنه أحس في نفسه بالهدوء والطمأنينة..

لقد غيرته نفثات الليل الهادئة المتدبرة المتفكرة..

وأخذته بثات الهمس الفائت إلى طريق جديد أبصر فيه الطريق بوضوح...

ورأى العلامات نيرة ساطعة فأخذ العزم منه شطرا كبيرا

وانطلق بقوة في طريق النور إلى الأمام دائما.

الفهرس

الإهداء ٦
مقدمة ٧
هل رأيت الكعبة ؟..... ٩
هل أنت كالأعمى؟ ٢٤
هل أغلقت الباب..... ٣٦
البحث عن الحياة..... ٤٧
البحث عن اللحظات..... ٦٦
وهو يقرأ الرسالة..... ٧٤
سجود الظل..... ٩١
فلما جنَّ الليل..... ١٠٢
فلولا تشكرون..... ١٢٠
لا يغير حتى يغيروا ١٣٠
موت المهاجر..... ١٤٢

أعقل الناس..... ١٥٢
الصدمة الأولى..... ١٦٧
الحمل فوق الرأس ١٧٩
هَوْنُ المحبة..... ١٨٨
القشة المذمومة..... ٢٠٠
بلسان عربي مبين ٢١١
الختام المعجز..... ٢٢٤
احفظوا القرآن..... ٢٤٣
خاتمة ٢٥٤
الفهرس..... ٢٥٥